

حفني ناصف

بطولته في مختلف الميادين

بقلم

محمود غنيم



المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

أعلام العرب
٤٧

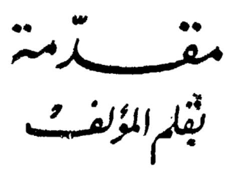
حفني ناصف

بطولته في مختلف الميادين

بقلم

محمود غنيم

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة



يقول المتنبى فى ابن العميد :

وترى الفضيلة لا ترد فضيلة
الشمس تشرق والسحاب كنهورا (١)

وهو يعنى بذلك أن ابن العميد كان متعدد الجوانب ،مختلف المواهب ،فهو فى عالم الكتابة امام ذو طريقة تنسب اليه ، وهوفى عالم السياسة وزير يصرف دولة آل بويه ، الى غير ذلك من المواهب التى لم تستطع احداها أن تغطى على غيرها لتميز كل منها وأصالته .

وما أحرانا أن نتمثل بهذا البيت عند مانعرض لشخصيةحفنى ناصف بالدرس والتحليل ،فقد كان هو أيضا متعدد الجوانب مختلف المواهب ، ولم تستطع موهبة من مواهبه أن تكون من أختها بمنزلة الستار الذى يحجبها عن الأبصار ، فأنت تقرأ شعره فترى نفسك أمام علم شامخ من أعلام القريض ، وأنت تقرأ نثره،

(١) كنهور : كثيف متراكم .

فترى نفسك أمام رجاف مترامى الأطـــراف ، حتى لاتدرى أىّ الفنين فى حياته هو الأصيل ، وأيهما هو الدخيل ؟ .

فاذا تجاوزت الناحية الأدبية من زاويتيها برز لك من حفنى ناصف عملاق آخر : هو حفنى العالم المؤلف البحاثة الذى ملأ الدنيا وشغل الناس بأبحاثه ومصنفاته . ثم يأتى بعد هذا كله ، أو قبل هذا كله ـ ان شئت ـ حفنى ناصف المصلح الاجتمـــاعى الذى كان من أوائل الدعاة الى انشاء أول مجمع لغوى عرفتـه مصر ، والى انشاء أول جامعة علمية عرفتها مصر ، كما كانت له اصبع فى كل مشروع تقدمى غير المجمع والجامعة من المشروعات الحيويه التى نادى بها استاده جمال الدين الأفغانى ، وتبنـاها من بعده أستاذه وصديقه محمد عبده ، فكانت أسس النهضـة الشـاملة فى مصر الحديثة .

وقد تدهش حين أسترسل فى سرد مواهب حفنى ناصف ـ ولا أقول عبقرياته ـ فأعرض لناحيتين لاتخطر احداهما للقارىء على بال .

أما أولى هاتين الناحيتين فهى الناحية الرياضية ، فانك لتدهش اذا علمت أنه كان يجيد كثيرا من الألعاب ، ولاســيما الغطس والسباحة ، وتدهش أكثر اذا علمت أنه في احدى سياحاته بمدينة «مرسيليا» صادف مباراة عالمية فى السباحة على وشـك أن تقام هناك ، فأدرج اسمه بين المتبارين ، وفاز بالجائزة الثانيه .

وأما الناحية الثانية فهى ناحية الموسيقى والتلحين ، فانك لتدهش اذا علمت أنهما كان لهما فى حياته نصيب ، وانك لتدهش أكثر اذا علمت أن شهادته كانت موضع تقدير المحكمة فى قضية هامة تدور حول نزاع بين شركتين كبريين من شركات تعبئة الأسطوانات : هما شركتا « جيرامافون وبيضافون » لقد ندبته المحكمة اذ ذاك باعتباره شاهدا ، بل خبيرا لما يتمتع به من خبرة فنية فى هذا المضمار ، فوضع تقريرا ضافيا فى موضوع النزاع واستطرد فى تقريره الى الكلام عن الغناء العربى نظما وتلحينا فألم بأطراف الموضوع الماما جعل هيئة المحكمة لاتتردد فى الأخذ بوجهة نظره ، ولعل هذا التقرير ، أو هذا الحكم المترتب عليه كان أول حجر وضع فى أساس الاعتراف بحقوق المؤلفين والملحنين .

ان من عجيب أمر حفنى ناصف أن تشتمل حياته على عدة مفارقات تثير الدهشة ، حتى ليصح أن يطلق عليه « رجل المتناقضات » .

فأول حلقة من سلسلة هذه المفارقات ولعه بمزاولة الرياضة البدنية ، فضلا عن تبريزه فيها ، وعهدنا بمن يزاولون ألوان النشاط الرياضى أنهم من أرباب القدود الهيفاء والقامات المشوقة وماكذلك كان حفنى ناصف ، بل كان جسمه يشكو غير قليل من البدانة ، وان شئت فقل من الترهل والانبعاج ، وله فى ذلك نكات مأثورة يحفظها الكثيرون .

الحلقة الثانية من سلسلة المفارقات فى حياته أنه كان علما من أعلام الدعابة ، ولا اخالنى أسىء الى ذكراه اذا قلت : ان هـذه الدعابة كثيرا ما كانت تبلغ حد مايسمونه بالنكتة المكشوفة ، غير أن هذه الدعابة ــ مستورة كانت أو مكشوفة ــ لم تكن تنقص من وقاره كشيخ معمم سلخ من عمره فى الأزهر الشريف زهاء عشرة أعوام ، ولا كقاض مطربش سلخ من عمره فى القضاء زهاء عشرين عاما .

الحلقة الثالثة من سلسلة مفارقاته أنه كان فى عهد النهضـة الحديثة الذى بدأ باحياء التراث القديم ، ومن هنا كان أحدالكتاب الأعلام الذين تأثروا بطريقة ابن العميد ، والقاضي الفاضل ،شأنه فى ذلك شأن كثير من كتاب عصره : كالمويلحى ، والسيد توفيق البكرى ، وعبد الله النديم ، ومحمد عبده نفسه فى كثـير من رسـائله : سـار حفنى على هـذا النهـج ، ونسـج هـذا النسـج ، فسـجع واقتبس وزاوج فى رسـائله ، وأنشـأ مقـامات لا تكاد تفترق فى أسـلوبها ــ وان افتـرقت فى موضوعها ــ عن مقامات الحريرى وبديع الزمان . ولكننا عـلى الرغم من هذا كله نرى حفنى ناصف أحد الثائرين علىالسـجع الداعين الى تحرير الأساليب العربية من أصفاد المحسنات البديعية وفى ذلك يقول الشيخ أحمد الاسكندرى مانصه :

« وحفنى بك ممن تم على أيديهم نقل الكتابة من الطـريقة البديعية المسجوعة الكثيرة التورية التى سميناها ــ طريقة القاضى

الفاضل ـ الى طريقة الترسل الحالية ، ويشاركه فى ذلك الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، وابراهيم بك المويلحى والشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، وله فى كلتا الطـــريقتين رسائل بليغة » .

الحلقة الرابعة من سلسلة مفارقاته أنه ـ فيما نعلم ـ لم يتلق دراسة منظمة فى غير الأزهر الشريف ومدرسة دار العلوم ،ومعنى ذلك أنه أعد ليكون مدرسا للغة العربية والدين الاسلامى ، فمـا الذى جعل من هذا الشيخ المعمم قاضيا مطربشا ، لافى المحاكم الشرعية ، بل فى المحاكم الأهلية مدة تبلغ زهاء عشرين عاما ؟.

وهنا ربما خطر بذهن القارىء أن حفنى ناصف دخل المحاكم الأهلية من النافذة لامن الباب ، والواقع أن بابها فتح له عـلى مصراعيه ، وأنه كان أصيلا لادخيلا فى القضاء ، كما سنفصل ذلك عند حلول موضعه من هذا الكتاب .

الحلقة الخامسة من سلسلة مفارقاته أنه كان فنانا من فرعه الى قدمه ، كما عرفت ذلك مما أســلفناه ، ونحن نعلم أن للفن محرابا ينقطع فيه الفنان انقطاع الرهبان للتبتل والعبادة فى الأديار وقد عرفنا كثيرا من الفنانين يعــزفون عن البناء خشية الأبنـاء وما تتطلبه تربيتهم من الأعباء التى تلقى على كواهل الآباء ، فاذا بنى أحدهم فعرسه كأم الصقر مقلات نزور . ولكننا نرى هــذا الفنان الذى حلق فى عليا سموات الكتابة والشعر وغيرهما من ضروب الفنون ــ نراه ينوء كاهله بفيلق من الأبناء يتطلب عدة

آباء . وهنا يخطر بالبال هذا السؤال : كيف اســتطاع حفنى الاضطلاع بهذه الأعمال التى تتطلب ما لا قبل لأحد به من سعة الوقت ، ووفرة المــال ، وفراغ البال ؟.

كان حفنى طالبا طوال مدة تعلمه وتعليمه ، وفى حله ورحلاته وفى كل مراحل حياته ، حتى لتستطيع أن تعتبر « حب المعرفة » مفتاح شخصيته ، ان أخذنا بمبدأ مفتاح الشخصية الذى يأخذ به العقاد فى عبقرياته ، ويعارضه فيه الاستاذ أمين الخولى وما ظنك بطالب تقع نقطة مداد على جبته ــ ولعلها كانت الجبة الوحيدة ــ أثناء تعلمه بالأزهر ، فتحمله هذه النقطة على دراسة علم الكيمياء؟ لقد ضاق ذرعا بازالة هذه النقطة ، فأرشده صديقه اسماعيل حسنين (اسماعيل باشا حسنين وكيل وزارة المعــارف فيما بعد) الى محلول كيميائى لايبقى لها أثرا ، فلما نجحت التجربة حمله نجاحها على دراسة علم الكيمياء ، فكان ــ وهو الطالب الأزهرى الغريق فى الشروح والحواشى الى أذنيه ــ يكب على طلب هذا العــلم من مظانه ، حتى ليبرز فيه ، وحتى تراه ينضح على ما يقرض من شعر ، ألست تشم رائحة المحلولات الكيماوية فى قوله :

وجيــوش الأرواح لابد تلقى ... فى وغى الموت والمنايا انهزاما

وانحلال المركبــات قضــاء ... فهو لابد يلحــق الأجســاما؟

ثم قــوله :

كل امرىء مهما تعــالى قدره ... يسطو على تركيبه التحليــل؟

وما ظنك بطالب أزهرى يستجم فى قريته أثناء العطلة الصيفية ،

فيترامى الى سمعه ذكر عالم فلكى يقال له (الشيخ خليل) فيشد الرحال اليه ،ويقضى العطلة بجواره فى دراسةعلم الفلك وقوانينه؟

ثم ماظنك بمدرس لغة عربية يدرس القوانين فى غير مدرسة وعلى غير مدرس ، فيتيح له ذلك التخلص من السبورة والطباشير ودفتر التحضير ، ويمهد له كرسى القضاء ؟.

كان حفنى طلعة يلتمس المعرفة أنى يجدها ، ومن أجلها أحب الرحلات واجتياب الآفاق ، وعمل بمبدأ «اطلب العلم من المهد الى اللحد » وما أظنه يعنى غير نفسه حين يقول فى رثاء عبدالله باشا فكرى :

محالف العلم من عهد الصبا شغف
بحبه كلما مر الزمان صبا

كل ذلك جعل من حفنى ناصف موسوعة هى أشبه مايكون بدائرة معارف يتصل بعضها ببعض بشتى الأواصر والصلات أو ينفصل بعضها عن بعض ، حتى لتتسع مسافة الخلف فى كثير من الأحيان ، تلك المعارف التى رأيناه فى شعره يبكى على فنائها بفنائه،وعدم استطاعته توريثها لأبنائه ، تلك المعارف التى جعلته يقرظ كتبا فى امساك الدفاتر ، والقانون التجارى ، والطب والجراحة والطبوغرافية ، ثم هو يتكلم عن كل كتاب من هذه الكتب كلاما لاتشعر معه أنه غريب عما يتناوله من الفنون .

لقد كان حفنى مرجعا لعلماء عصره ومؤلفيه ، وحسبك أن تعلم أن رجلا كجورجى زيدان ــ بطل الآداب العربية ، وأول مؤرخ

لها — كان يرجع اليه فيما أشكل عليه من المسائل ، واليك نبذة من خطاب بعث به اليه فى هذا الصدد بتاريخ ٩ من يناير سنة١٩١٤

« وبعد . فقد وصلت فى تاريخ آداب اللغة العربية الى هذا العصر ، وفى جملة ما أنا باحث فيه الجمعيات الأدبية بمصر ، وقد وجدت تاريخها غامضا مبهما لابد من أخذه من أفواه العارفين ، ولا أعرف أقدر منك فى ذلك .. الخ »

ولقد كان حفنى — على الرغم من تحدره من أسرة عريقة — عصاميا بكل ماتحمله هذه الكلمة من معان : كون مجده بيديه ، وأدمى فى سبيل السعى اليه قدميه ، وبنى صرحه بأحجار صبها بيمينه ، وجعل ملاطها العرق المتصبب من جبينه ، ولم يكن عصاميا فحسب ، بل كان حريصا على أن يحقق العصامية لأبنائه من بعده فنحن نراه يسمى ابنه الأول عصاما (١) ، فلما استأثرت به رحمة الله صبيا أمعن فى تحدى القدر ، فأطلق على ابنه الثانى اسم عصام أيضا ، ثم هو يصرح بذلك تصريحا فى خطاب بعث به الى صديقه الشيخ محمد عبده ردا على خطاب تعزية منه فى ابنه عصام الأول . استمع اليه يقول :

« ورد الخطاب ، فخفف حر المصاب ، لأنى كنت كلفا بهذا الغلام ، وشغفا بأن تسوده نفسه ، فسميته بعصام » ويختم حفنى خطابه مستشهدا بقول الشاعر :

---

(١) هو غير عصام الدين حفنى ناصف — مد الله فى اجله

جاورت أعدائي وجـاور ربه   شتان بين جـواره وجـوارى

وفى هذا الختام اشارة خفية ، بل اشـارة صريحة الى ماكان يعانيه من الأزمات النفسية وسنعلم من تفاصيل حياته أنه لم يكن يشق طريقه فى أرض مفروشة بالورد والريحـان ، بل فى أرض مملوءة بشوك القتاد وحسك السـعدان . وأغلب الظـن أن تلك الدعابات التى كان يرسلها فى مجالسه ، ويضمنها قصائده ورسائله انما كانت نوعا من التنفيس عما يعانيه هذا الرجـل العظيم من اضطهادات يضيق بها صدر الحليم .

وكأنما أبى القدر الا أن يلاحق رفاته بعد وفاته كما لاحقـه طوال سنى حياته ، فنحن لانعلم أنه قد أقيم له تمثال مما يقـام لعظماء الرجال ، أو أن اسمه أطلق على شارع من شوارع القاهرة أو معهد من معاهد التعليم ، بل ان حفلة التأبين التى كان مقررا أن تقام له بعد وفاته عفى عليها اندلاع نيران الثورة الوطنية التى شبها الزعيم الراحل سعد زغلول (1) ، فكأنما كان يعنيه شوقى حين يقول فى رثاء المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى :

اخترت يوم الهول يوم وداع   ونعاك فى عصف الرياح الناعى
من مات فى فزع القيامة لم يجد   قدما تشيع أو حفـاوة ساع

---

(1) توفى حفنى فى ٢٥ فبراير سنة ١٩١٩ واندلعت نيران الثورة فى مارس من هذه السنة .

وهكذا حقق الدهر لحفنى ما أراده لنفسه من العصامية حيا وميتا ، فكما بنى مجده بيديه فى حياته صنع خلده بيديه بعد وفاته : تولت ذلك آثاره الأدبية التى ظلت ردحا طويلا من الزمان تتناقل من الشفاه الى الآذان ، ثم عرفت سبيلها الى المطبعة بعد لأى ، أو عرف بعضها هذه السبيل ، وسوف يتم طبع سائر تلك الآثار مادام للطيب أريج ينم على ما استودعه من قوارير ، ومادام للكنوز معالم على سطح الأرض تهدى الباحثين الى مواقعها تحت الأنقاض .

وبعد . فهذه المامة وجيزة ببعض رءوس الموضوعات التى سنتناولها — ان شاء الله — بشىء من الاسهاب عند بلوغ مواقعها من هذا الكتاب الذى أرجو أن يسد ثغرة من الثغرات الشاغرة فى حياة هذا الرجل العظيم الذى يقول فيه الأمير شكيب أرسلان: «انه سيد أدباء عصره»[1] ويقول فيه عبد العزيز باشا فهمى : «انه قبل حفنى لم يوجد حفنى ، وبعد حفنى لن يوجد حفنى » ويقول فيه الأستاذ العقاد « ما نظن هذا الأديب معروفا حق المعرفة الى اليوم » .

على أننى أرجو ألا يفهم من كل ذلك أننى أسلم لحفنى ناصف على طول الخط فيما أعالجه من سيرته وآثاره الأدبية ، فليست

---

(1) عنوان مقال كتبه الامير شكيب أرسلان فى جريدة الاهرام بتاريخ ٢٣ ينساير سنة ١٩٤٠ م .

هذه هى رسالة المترجم ، ولاهى فى صالح المترجم له ، أما الأول فرسالته النقد ، والنقد فقط تحسينا كان أو تهجينا ، وأما الثـانى فحسبه أنه دخل التاريخ ، ثم لا يضيره بعد ذلك ماعسى أن يكون فى حياته من الشوائب والهنوات ، ويعجبنى فى هذا المقـام قول الاستاذ أمين الخولى فى نقد العبقريات : « ليس عندنا عبقـرية فلان وعبقرية فلان ، وانما عندنا فلان فى الميزان » .

مدرسة حفني ناصف

ولسنا نعنى بالمدرسة هنا مسماها المتعارف عليه بين طوائف المعلمين والمتعلمين ، وانما نعنى بها مسمى أوسع أفقا وأبعد غاية ، لا يقتصر على حيز محدود من الأرض ، أو خطة دراسية تفصل لها الكتب والمناهج طبقا لما يتميز به جسمها من أبعاد ، انما نعنى بهذه المدرسة البيئة الاجتماعية التى تفاعل معها حفنى ، والبيئة الأدبية التى انصهر فى بوتقتها ، والبيئة السياسية التى تأثر بها وأثر فيها ، ونضحت مع المداد على سن قلمه وأقلام غيره من الكتاب المعاصرين .

وليس من اليسير على المؤرخ أن يحدد على وجه الدقة : متى بدأت هذه المدرسة تؤدى رسالتها ؟ ولا أين كان قيامها أول ما قامت ، فان لها جذورا موغلة فى أعماق التاريخ ، كما أن لها أماكن متعددة بتعدد أرجاء العالم بصفة عامة ، والعالم العربى بصفة خاصة ، ولكننا بعد استسماح التاريخ نستطيع أن نقول على وجه الاجمال : ان أول مؤسس لهذه المدرسة فى العصر الحديث « هو نابليون بونابرت » .

ذلك أن الحملة الفرنسية التى قادها نابليون الى مصر فى سنة ١٧٩٨ ــ على الرغم من قصر مدتها ــ كانت لها جذور تمتد الى أبعاد سحيقة فى الأراضى المصرية من النواحى الاجتماعية والسياسية والأدبية ، وان كان من العسير أيضا على المؤرخ أن يفرد كل ناحية من هذه النواحى الثلاث بالكلام ، لشدة ما بينها من تفاعل ، ولشدة تأثير بعضها فى بعض ، وتأثر بعضها ببعض.

كانت مصر قبل هذه الحملة قد وصلت على أيدى العثمانيين الى أسفل درك يمكن أن تصل اليه أمة من ناحية الضعف العلمى والانحطاط الأدبى لولا بصيص من النور كان يطل عليها من مشكاة الأزهر الشريف ، كما كانت مصر اذ ذاك فى انقطاع يكاد يكون تاما عن العالم المتحضر فى الشمال ، على الرغم من أنه لا يفصلها عن هذا العالم غير البحر الأبيض المتوسط .

عجبت لبحر الروم يلقى بموجه
على ساحل حر وآخر موثق

واذا كان المثل العربى يقول : « رب ضارة نافعة » فكذلك كانت الحملة الفرنسية . لم يكن كل جنود هذه الحملة من لابسى الخوذات ، وحملة البندقيات ، وانما كان منهم جنود يكافحون فى ميادين العلوم والاستكشافات : هؤلاء الجنود تبلغ عدتهم زهاء ثمان وأربعين من خيار العلماء الفرنسيين تكون منهم أول مجمع علمى عرفته مصر الحديثة ، ولقد توفر هذا المجمع على دراسة مصر من النواحى التاريخية والاقتصادية والاجتماعية،ولم

ينفرد بالعمل ، ولكنه سلك سبيل الديموقراطية العلمية ؛ فكان يستقدم بعض علماء المصريين وأعيانهم ليشاهدوا كيف تدور أبحاثه ؟ وما تقوم به معامله الكيمائية من تجارب ، وليشاركوا فيما يصدره من نشرات دورية كانت تصدر كل ثلاثة شهور .

ولقد تمخضت هذه الأبحاث عن موسوعة علمية أطلق عليها اسم « وصف مصر » ولم يكتف الفرنسيون بذلك ، بل أنشئوا مكتبة عامة حديثة التبويب والترتيب بعد أن بعد عهد مصر بهذا النوع من المكتبات ، كما أنشئوا مدرستين نظاميتين لتعليم أبناء الجالية الفرنسية رأى المصريون فيهما طرازا من التعليم جديدا غير الذى ألفوه فى أروقة الأزهر الشريف .

ولأول مرة بعد أن اخترع فن الطباعة بأكثر من ثلاثة قرون يشاهد المصريون مطبعة حديثة مزودة بالحروف اللاتينية والحروف العربية بعد أن كان كل اعتمادهم فى نشر مؤلفاتهم على صناعة الوراقة وطائفة النساخين .وعن طريق هذه المطبعة عرف المصريون الصحف السيارة اثنتين منها باللغة الفرنسية وثالثة باللغة العربية اسمها « التنبيه » .

ولم تقتصر آثار الحملة الفرنسية على ذلك فحسب ، بل لعلهم أول من وجه أنظار المصريين فى العصر الحديث الى المشاركة فى الحكم ؛ فألفوا لذلك ديوانين : أحدهما ديوان خاص يتكون من تسعة أعضاء مصريين كان منهم الشيخ الشرقاوى والشيخ الفيومى والسيد عمر مكرم ، والثانى ديوان عام يضم كثيرا من

وجهاء المصريين وأعيانهم ، نعم كان رأى كل من هذين الديوانين استشاريا ، ولكنه ــ على كل حال ــ كان النواة الأولى لشجرة الحكم النيابى التى ترعرعت أوراقها على مر الأيام .

كان طبيعيا بعد هذا كله أن يبدأ فى مصر عهد جديد يتصل فيه أهلها بدول أوربا بعد أن طال أمد الانقطاع منذ وضعت الحروب الصليبية أوزارها ، وكان طبيعيا أن يفتحوا أعينهم على ما وصل اليه الأوربيون من حضارة ومعرفة ، وكان طبيعيا أن يتنبهوا الى حقوقهم السياسية التى غصبهم اياها حكام المماليك وولاة العثمانيين . وكانت نتيجة هذا كله أن بدأ فى مصر عهد جديد من الوعى ارتفعت فيه الحناجر مطالبة بتكوين الهيئات النيابية ، وأنشئت فيه دور التعليم على النظم الحديثة ، وعرفت فيه البعثات العلمية طريقها الى أوربا ، وألف المصريون فيه طبع ما يؤلفون من الكتب ، واصدار ما تمس حاجتهم العمرانية والأدبية الى اصداره من الصحف والمجلات .

على أنه ــ مما يؤسف له ــ أن هذه المدرسة التى وضع نابليون أساسها لم تلبث أن اعترتها نكبسة كادت تقضى على آثارها كما تقضى الرياح الهوج على الدمن والأطلال . ويتلخص سبب هذه النكسة فى فساد الحكم ، وضعف الولاة من الأسرة العلوية ، ولاسيما عباس الأول وخلفه سعيد . على أنها ظلت تتحرك بحكم القصور الذاتى فى خطا وئيدة ، حتى قيض الله لها رائدا من طراز جديد بدلها أمنا بخوف ، وقوة بضعف ، وأعاد

الى رئتيها الهواء والى شرايينها الدماء : ذلك الرائد الجديد هو الشيخ جمال الدين الأفغانى واذا كان اتصال بطلنا حفنى بهـذه المدرسة فى عهدها الأول اتصالا غير مباشر فقد كان اتصاله بها فى عهدها الثانى مباشرا كل المباشرة : لقد لابس أساتذتها ، وتفاعل مع تلامذتها ، وكان له مع كل من هؤلاء وهؤلاء دور ، بل كان له هو نفسه فى كيان هذه المدرسة دور بعيد الغور .

وفد جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩ ــ ١٨٩٧) على مصر سنة ١٨٧١ ، وأقام بها زهاء ثمان سنوات . بيد أن هذه المدة ان كانت قليلة الكم فى حساب دورات الأفلاك فقد كانت كثيرة الـكيف بالنسبة لرصيدها من الاصلاح ، حتى لتستطيع أن ترجع اليها ــ وأنت مطمئن ــ معظم مظاهر التقدم العلمى والأدبى والاجتماعى فى العصر الحديث ، وتستطيع ــ وأنت مطمئن أيضا ــ أن تعتبر جمال الدين الأب الروحى لكل زعماء النهضة وحاملى مشاعلها فى هذا العصر بدون استثناء .

وسر عظمة هذا الرجل يكمن فيما يتمتع به من شخصية جذابة قوية قوة الريح العاصفة ، والسيل الجارف ، والمحيط الهادر ، وكان من روافد هذه الشخصية ما امتاز به من ذكاء خارق ، وذهن لماح ، وهمة لا تعرف الكلال ، اذا عرفته أطراف الأسنة وشفار النصال ، كما ساعد على تكوينها ما ثقفه فى سن مبكرة من علوم البلاغة والفقه الاسلامى وفقه اللغة ، فضلا عن علوم التاريخ والتصوف والمنطق والفلسفة والطبيعيات وما وراء

الطبيعة والهيئة والطب والتشريح والرياضيات ، مضافا ذلك الى ماكان يجيده من لغات منها الانجليزية والفارسية والتركية والأفغانية ، فوق ما يتمتع به من التبريز فى اللغة العربية .

وقد لمع نجم جمال الدين أول ما لمع فى بلاده ، فتقلب فى عدة مناصب ، حتى تقلد رياسة مجلس الوزراء . على أنه لم يكن لمثل جمال الدين فى عنفه وجنوحه الى الثورة بطبيعته أن تطول اقامته فى بلاده أو غيرها من البلاد دون أن تسل عليه سيوف النفى والتشريد ، فضلا عن أنه بحكم تكوينه لم يخلق زعيما محليا ، وانما كان يعتبر العالم كله بصفة عامة ، والعالم الاسلامى بصفة خاصة لنفسه دارا وقرارا ، على حد قول البارودى :

اذا سرت فالأرض التى نحن فوقها
مراد لمهدى والمعاقل دور

ولقد كان لهذه الرحلات التى قام بها فى مختلف أرجاء العالم ـ من غير شك ـ أثرها فى صقله ، وتوسيع آفاقه ، وتنوع معارفه ، وجهارة اسمه ، حتى أصبح على كل لسان فى كل مكان. على أن رحلاته الى الهند والآستانة ومصر وغيرها ـ وان تعددت أسبابها ـ كان الهدف الأول منها توحيد كلمة الاسلام ولم شعث المسلمين فى سائر أنحاء الأرض فى صورة دولة موحدة ، كما كان الحال فى عصور الاسلام الذهبية ، قبل أن تتخطف أممه الأمم وتذهب فريسة الاستعمار .

بدأ جمال الدين نشاطه فى مصر بالقـــاء دروس دينية من طراز جديد فى الأزهر الشريف ، فأكسبه علمه احترام التقدميين من طوائف العلماء ، وأثار عليه حقد طائفة أخرى من هذا الطراز الذى يعنيه شوقى بقوله :

وحارب دونهـــا صرعى قـــديم
كأن بهـــم عن الزمن انقطـــاعا
اذا عرض الجـــديد لهم تولوا
كـذى رمد على الضــوء امتنـــاعا

وأيا كان الأمر فقد كان لدروسه فعل الســحر فى نفــوس تلاميذه ومريديه من طوائف الطلاب المتفتحين المتطلعين الىآفاق أعلى وأوسع مما ألفوه بين جدران الأزهر ،وقد بهرتهم طريقته فى التوفيق بين الأوضاع التاريخية للدين والفلسفة من جانب ، ونتائج ما وصل اليه الفكر الجديث من جانب آخر .

كان جمال الدين فيلسوفا وكاتبا وخطيبا وصــحافيا ، وكان قبل ذلك كله سياسيا من الطراز الأول ، وكان ممن يدينون بأن الاسلام دين ودولة ، ولا يدينون بمبدأ الفصــل بين الســلطة الزمنية والسلطة الروحية . ومن هنا كان يبث فى نفوس تلاميذه عند القاء دروسه روح الثورة والتمرد،ومقاومة الذلوالاستعباد، كما كان يحبب اليهم الكتابة فى الصحف ، وارتقاء أعواد المنابر ، وبذلك تمكن من خلق جيل جديد . هذا الجيل هو الذى أطلقنا عليه اسممدرسة حفنى ناصف فى عهدها الجديد : تلك المدرسة

التى كان لها الأثر المباشر فى تكوينه ، فقد تلقى دروسها مشافهة على رائدها جمال الدين ، ثم على حواريه بعد نفيه ــ الشيخ محمد عبده ــ كما تلقى هذه الدروس نفسها كثير ممن حملوا لواء النهضة الحديثة من كل زعيم ثائر ، أو خطيب مفوه ، أو عالم مستنير ، أو كاتب بارع ، أو شاعر مجيد .

ولعلك بعد ذلك فى غنى عن الاشارة الى أن الثورة العرابية التى قامت عقب نفى جمال الدين من الديار المصرية بنحو ثلاث سنين ، أعنى سنة ١٨٨٢ ــ كانت من النتائج المباشرة لتعاليم جمال الدين ، كما كان قائدها البطل أحمد عرابى (١٨٤١ ــ ١٩١١) من تلاميذه المباشرين . وتستطيع أن تقول مثل ذلك فى الحركة الوطنية التى قادها الزعيم الشاب مصطفى كامل(١٨٧٤ ١٩٠٩) عقب فشل الثورة العرابية وما استتبعه هذا الفشل من احتلال جثم على صدر مصر زهاء سبعين عاما .

وهذا الكلام نفسه ينطبق تمام الانطباق ــ كما يقول التعبير الهندسى ــ على ثورة سنة ١٩١٩ التى تزعمها سعد باشا زغلول (١٨٥٩ ــ ١٩٢٧) ولقد كان سعد أزهرى النشأة كما كان تلميذا مباشرا من تلاميذ جمال الدين .

أما ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ فنترك الكلام عن بذورها الأولى لقائدها البطل جمال عبد الناصر . استمع اليه يقول فى احدى خطبه :

« قد يحدد الناس تاريخ الثورة المصرية التى قام بها الجيش ممثلا للشعب باليوم الثالث والعشرين من يولية سنة ١٩٥٢ ، والواقع أن هذا التاريخ مجافاة للواقع ، لأنه لم يكن الا آخر مراحل الثورة ، أما أولى مراحلها فسابقة لهذا التاريخ بعشرات السنين ، انه اليوم الحادى عشر من يولية سنة ١٨٨٢ أى قبل هذا التاريخ بسبعين عاما واثنى عشر يوما على وجه التحديد » .

وقبل أن نختم هذا الفصل ينبغى أن نلاحظ عدة ملاحظات:

١ ــ أن المدة التى أقامها جمال الدين فى مصر (١٨٧١ ــ ١٨٧٩) كان حفنى فى أثنائها طالبا بالأزهر ، ومعنى ذلك أنه أدرك عهد جمال الدين فى مصر كاملا غير منقوص .

٢ ــ أن السنة التى قامت فيها الثورة العرابية سنة ١٩٨٢ توافق بالضبط السنة التى تخرج فيها حفنى ناصف فى مدرسة دار العلوم ، أى أنه اذ ذاك كان حديث عهد بالتخرج يضع قدمه على عتبة الحياة العملية .

٣ ــ أنه عاصر الحركة الوطنية التى قام بها مصطفى كامل من قيامها الى وفاة قائدها ، ولقد كان الزعيم مصطفى كامل أحد تلامذة حفنى فى مدرسة الحقوق .

٤ ــ أن الشيخ محمد عبده لم يكن يكبر حفنى ناصف بأكثر من ست سنوات ، اذ أن الأول ولد سنة ١٨٤٩ والثانى ولد سنة ١٨٥٥ ، ولذلك نرى الثانى ينزل من الأول منزلة التلميذ تارة ، والصديق تارة أخرى .

٥ ــ أن حفنى ناصف لم يدرك الثورة التى شبها الزعيم سعد زغلول سنة ١٩١٩ ، فقد كانت هذه السنة بعينها هى سنة وفاته ــ كما سبقت الاشارة ــ .

ونستطيع بعد ذلك أن نجمل وصف الفترة التى عاشها حفنى ناصف فى ثلاث كلمات :

١ ــ أما الحالة السياسية فقد كانت مشوبة بالقلق والاضطراب بسبب سفه اسماعيل ، وارتماء خلفه توفيق فى أحضان الانجليز ، وفشل الثورة العرابية الذى رمى مصر بنكبة الاحتلال ، وما استتبعه هذا الاحتلال من قيام الحركات الوطنية لمقاومته فى مختلف العهود .

٢ ــ وأما الحالة العلمية فقد كانت آخذة فى الازدهار بفضل ما أنشىء بجوار الأزهر من المدارس العليا والمتوسطة والابتدائية ، وبفضل ما أدخل على الأزهر نفسه من تعديل فى مناهجه وأساليب الدراسة فيه ، ثم بفضل جهود المبعوثين الى أوربا فى التأليف والترجمة ، من أمثال رفاعة رافع الطهطاوى وأضرابه .

٣ ــ أما الحالة الأدبية فكانت هى الأخرى على جانب من الازدهار ، وان كان الطابع الغالب عليها هو طابع بعث الأدب القديم المشوب بقليل من الابتكار والتجديد ، وذلك بفضل التقدم العلمى ، وبفضل ما أنشىء من الصحف والمجلات ، وأقيم من الأندية الأدبية ، وطبع من الكتب الأدبية القديمة ، وألف من الكتب الأدبية الحديثة .

نشأة حفني

١ ـ النشأة الأولى :

لا يذكر التاريخ كثيرا عن طفولة الأبطال العصاميين ، فنحن لا نكاد نعرف قليلا أو كثيرا عن طفولة السفاح والمنصورمؤسسى الدولة العباسية ، وعلى العكس ربما عرفنا غير قليل عن طفولة الأمن والمأمون ، لأنهما نشئا فى حجر الخلافة ، والأضواء مسلطة عليهما منذ كانا فى المهد صبيين . وحفنى ناصف رجل عصامى ـ كما أسلفنا ـ فلا غرابة ان فاتنا كثير من حوادث طفولته التى تنير أمام الباحث الطريق .

وكل ما نعرفه من ذلك أنه فى قرية « بركة الحج » المجاورة لضاحية المرج بمديرية القليوبية فى الخامس من محرم سنة ١٢٧٢ هـ الموافق ١٦ سبتمبر سنة ١٨٥٥ ولد للشيخ محمد ابن اسماعيل بن خليل بن ناصف ولد أطلق عليه اسم محمد الحفنى . وهذا الاسم هو الذى تبلور فيما بعد على الألسنة والشفاه . فصار « حفنى ناصف » ويتصل نسبه بالأمير ناصف الذى كان يسكن هذه المنطقة من قديم ، وليس فيها من يحمل اسم ناصف سوى أسرته .

كان حفنى وحيد أبويه ، وقد : .

ولدته مولد العـــافى الفقـــير
حرة تبـــكى على فقـــد العشـــير

فقد توفى والده وهو جنين فى بطن أمه ، فكفله ــ كما يقول الشيخ الاسكندرى ــ خاله وجدته لأبيه ، فتوليا الانفاق عليه من ريع حديقة من النخيل آلت اليه ميراثا عن أبيه ، وحفنى نفسه يشير الى نشأته الأولى فى بعض رسائله بقوله : «...مسقط رأسى ، والأرض التى كان بها غرسى بركة الحج التى ترد اليها الوفود من كل فج : قرية ذات أعناب ونخيل ، بينها وبين مصرمن مشرق الشمس ميل ، وربيت فى حجر الترف ، والمجد والشرف ، بيد أن أبى جاور مولاه قبل أن تقر بى عيناه ... الخ »

وقد وجدت فى نشأة حفنى وجه شبه يجمع بينه وبين أستاذه وصديقه محمد عبده ، فكلاهما كان فى حياته فرار من التعليم ، وكلاهما كان فى حياته رجل وجهه ــ عامدا أو غير عامد ــ الى التعليم الصحيح . أما الشيخ محمد عبده فقد فر من التعليم الدينى بالمعهد الأحمدى الى قرية أخواله ، حتى قيض له الله « الشيخ درويش خضر » فهداه عن طريق التصوف سواء السبيل ، فعاود الاتصال بالازهر ، ثم سار على الدرب . وأما حفنى ففد فر من مكتب القرية بسبب غلظة فقيه هذا المكتب ، وسوء المعاملة التى كان يعامله اياها ، غير أنه لم يفر الى بلده أو بلد أخواله ، بل فر طائعا مختارا ، ساعيا على قدميه الى الأزهر

الشريف حيث أتم حفظ القرآن ، ومعرفة أحكام القراءة ، ثم بدأ في دراسة العلوم الأزهرية على نحو ما سنفصل فيما بعد .

فاذا كان الشيخ درويش خضر هو سبب هداية الشيخ محمد عبده فقد كان هذا الفقيه الفظ هو سبب هداية حفنى ناصف ، وتوجيهه التوجيه السليم ، على اختلاف ما بين القصدين ،وتباين ما بين السبيلين .

والذى يبدو لنا من تاريخ هذه الفترة فى حياته أنها كانت فترة قلق نفسى ، واضطراب عاطفى ، فانه لم يجد فى هذا المكتب الذى أريد له أن يتعلم فيه ما يشبع رغبته ، وهو الصبى المتفتح الطموح ، فضلا عما صادفه فيه من غلظة القائم بأمره ، وهو اليافع الدقيق الحس المرهف المشاعر ، الذى لا يحتمل الأذى،ولا يقيم على ضيم يراد به ، يضاف الى ذلك أنه كان اذ ذاك قد بلغ سن المرهقة ــ الرابعة عشرة من عمره ــ وهى سن ينضج فيها المراهق نضجا نسبيا ، ويحس فيها بما يدور حوله من الأحداث ، وتسمح له بالتفكير فى مصيره ، وفى أى السبل يختطه الى هذا المصير .

والذى لاشك فيه أنه كان له أتراب ولدات يساوونه فى العمر ، أو يكبرونه قليلا ممن أتيح لهم الانخراط فى سلك طلبة الأزهر ، وكانت مصاطب القرية تجمعه بهذا الرعيل ، كما كانت تجمعه بهم شطآن الترع ، وأفنية المساجد ، وظلال النخيل ، الى غير ذلك مما يعتبر فى الريف بمثابة الأندية العامة فى المدن .

وبديهى أنه كان يستمع بأذن مرهفة الى ما يدور بين أترابه من حوار علمى ، وما يتناولونه من أحاديث تدور حول المسائل الفقهية حينا ، والقضايا النحوية حينا آخر ، وحول مشايخهم فى الأزهر ، وطريقة كل منهم فى معالجة الدروس . وبديهى أيضا أنه كان ينظر بعين محملقة الى ما بأيديهم من متون تنتظم مختلف الفنون، والى ما يتصل بهذه المتون من شروح وتعليقات .

كل هذه الأسباب مجتمعة تفسر لنا كيف تولدت فى نفس حفنى الناشىء رغبة جامحة تدفعه الى الأزهر دفعا . ولكن ماذا يفعل ليحقق هذه الرغبة ؟ ومن يكاشف بذات نفسه ؟ ليس له أب أو أخ كبير يستطيعان أن يفهماه ، وانما كان له خال وجدة يعدان فراره من المكتب اباقا ، وخروجه على الفقيه تمردا وعقوقا ، فلم يكن أمامه الا أن يركب رأسه ، أو يركب قدميه الى القاهرة ، وهى عن كثب من مسقط رأسه . وهناك اتصل بأترابه ولداته ، فأخذ يساكنهم ، ويؤاكلهم ويشاربهم ، ويختلف معهم الى أروقة الأزهر الشريف .

وحينئذ وجد عائلوه أنفسهم أمام الأمر الواقع ، فلم يجدوا مندوحة من التسليم ، وأخذوا يمدونه — طائعين أو كارهين — بما يحتاج اليه من أهبة وزاد .

٢ — حفنى فى الأزهر :

ما أشبه الأزهر بالمحيط الرجاف ، يصيد فريق منه اللؤلؤ والمرجان ، ويصيد فريق آخر منه الأسماك والحيتان ، وفريق

ثالث لا يحصل منه على غير ماء ملح أجاج لا يروى غلة الظمآن، وربما كان هناك فريق رابع لا يحصل منه على شيء ، بل يموت غريقا فى موجه المتلاطم .

ذلك أن نظام الدراسة فى الأزهر كان الى عهد قريب يعتمد على حرية الطالب المطلقة فى اختيار دروسه ومدرسيه ، ولم يكن يسوده نظام يكفل لكل فريق متساو فى المدارك قسطا متساويا من التعليم

ولكن تأخذ الآذان منه
على قدر القرائح والفهوم

وعلى أى حال فقد كان حفنى ناصف يوم أن أخذ سمته الى الأزهر من صيادى اللؤلؤ والمرجان ، لا من صيادى الأسماك والحيتان ، انه لم يقطع المسافة بين مسقط رأسه وبنيه سعيا على قدميه ليعبث ، بل ليحصل ، وما أجدر بالتحصيل طالبا كحفنى مفتاح شخصيته حب المعرفة ، فضلا عما يمتاز به من استعداد فطرى وذهن متفتح ، وقد يكون مما ساعده على التحصيل تلك الحرية التى كان يتمتع بها اذ ذاك طالب الأزهر ، وهى سلاح ذو حدين : أحدهما كليل فى يد من لا يحسن استغلالها ، وثانيهما أليل فى يد من يحسن هذا الاستغلال . يضاف الى ذلك أن الأزهر فى هذه الفترة قد أخذ يتثاءب من نوم عميق غط فيه زهاء تسعة قرون : أى من منذ أنشأه القائد جوهر سنة ٩٧٠

---

(١) أليل : حاد مرهف .

الميلادية ، وكان الفضل فى هذا التطـور النسـبى يرجع الى ما ألمعنا اليه من الاتصال الأوربى ، وقيام جمال الدين بالتـدريس فى الأزهر فى تلك الفترة ، وهى نفس الفترة التى قضاها محمد عبده فيه طالبا ومدرسا ، كذلك صادفت هذه الفترة تولى الشيخ محمد المهدى العباسى منصب مشيخة الأزهر من سنة ١٨٧٠ الى سنة ١٨٨٢ ، وقد أدخل هذا الشـيخ الجـليل على الأزهر عدة اصلاحات ، يتعلق بعضها بمناهجه ، ويتعلق البعض الآخر بنظمه الادارية ، وكان من أهم هذه الاصـلاحات ادخال نظـام تأدية الامتحان النهائى أمام لجنة تشكل من ستة من كبار العلماء ، وان كانت هذه الاصلاحات قوبلت بعاصفة من المعارضـة من بعض الأزهريين .

نعم ، لم يكن الأزهر اذ ذاك كما كان فى الماضى هو المعـين الوحيد الذى ينهل منه طالب المعرفة ، فقد كانت تقوم الى جانبه دور التعليم التى إنشئت حديثا على النظام الأوربى،ولكن الأزهر ظل على الرغم من قيام هذه المدارس على اختلاف طبقاتها محتفظا بمركز الصدارة فى عالم الثقافة ، وقلما تجـد علمـا من الأعلام البارزين فى ميدان الأدب أو السياسة أو الاصلاح الاجتماعى فى هذه الفترة الا وللأزهر يد فى تثقيفه ، اما بطريقة مباشرة كمـا هو الحال فى محمد عبده وأحمد عرابى وسعد زغلـول ، واما بطريقة غير مباشرة ، وهى الطريقة التى عناها شوقى بقوله :

ما ضرني أن ليس أفقـــك مطلعي
وعلى كواكبـــه تعـــلمت السرى ؟

واذا كان أفق الأزهر ليس مطلع شوقى ، وانما تعلم السرى على كواكبه فقد كان هذا الأفق مطلع حفنى ناصف ، وبالأحرى تعلم السرى على الزهر من كواكبه .

قضى حفنى فى الأزهر زهاء عشر سنين من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٨٧٩ ، ولم يفارقه الا بعد أن أوفى على الغاية أو كاد . وبين أيدينا صورة طريفة لبعض الاجازات التى حصل عليها من الأزهر يؤسفنا ألا يتسع المجال لاثباتها .

أما العلوم التى درسها حفنى فى الأزهر ، وتضلع منها فهى فقه الشافعية والنحو والصرف ، وعلوم البلاغة (البيان والمعانى والبديع) وعلم العروض والقوافى ، والمنطق والتوحيد والتفسير والحديث .

على أن طالبا كحفنى لم يكن ليقتصر على ما يدرس رسميا بين جدران الأزهر ، وانما كانت له طرقه الخاصة فى تحصيل المعارف الأخرى كتلك الطرق التى أشرنا اليها فى تعـلم علمى الفـلك والكيمياء . وأغلب الظن أنه بهذه الطرق نفسها عكف على دراسة الأدب ، فنحن نعلم أن أساليب الدراســة فى الأزهر لا تكــون الأديب ، وان كنا نعلم بجانب ذلك أنها تغــرس بذور الأدب فى الملكات ، فشواهد علمى النحو والصرف وعلوم البلاغة تمت الى صميم الأدب بأوثق الصلات ، وكثير من المعلقــين على الــكتب

الأزهرية يستطرد عند ذكر هذه الشواهد ، فيورد القصائد التى اشتملت عليها برمتها ، وربما لا يكتفى بمجرد الايراد ، بل يصحبه بالشرح والتعليق . يضاف الى ذلك أن طرفا من أطراف الأدب الصميم كان قد اتخذ سبيله الى الأزهر منذ زمن مضى ، فهذا الدكتور « تشارلز آدمس » يقرر فى كتابه « الاسلام والتجديد فى مصر » أن شيخا اسمه الطنطاوى كان يقوم بتدريس مقامات الحريرى حوالى سنة ١٨٢٧ ، أى قبل وجود حفنى فى الأزهر بنحو أربعين عاما . كذلك كانت تدرس فى عهد حفنى بالأزهر كتب عبد القاهر (أسرار البلاغه ودلائل الاعجاز) كما كان يدرس كتاب الكامل للمبرد ، وكل ذلك بفضل ما أدخله جمال الدين ومحمد عبده من التجديد فى أساليب الدراسة الأزهرية . ونستطيع بعد ذلك كله أن نقرر أن الأزهر لم يكون حفنى ناصف الأديب الناضج ، ولكنه فتح له الطريق ، فأخذ حفنى بطريقته الخاصة يواصل السير ، ويغذى ملكته الخصبة بالقراءة والرواية ، ولعله كان يدخر من غذائه وكسائه ما يوفر له ثمن الكتب الأدبية لا ليضعها على رفوف مكتبته ، بل لتأخذ مكانها من ملكته وعقله واستعداده ، ومثل حفنى اذا قرأ وعى ، واذا وعى هضم ومثل ، وأصبح ما يعيه جزءا من كيانه .

من هنا عرف حفنى ناصف الشاعر الناثر فى الأزهر ، فكان اسمه ملء أفواه العلماء ، بله الطلاب . واذا كان ـ وهو طالب ـ يدرس بعض كتب النحو للطلاب ككتاب ابن عقيل بغير صفة

رسمية فقد كان أيضا ــ بغير صفة رسمية ــ أستاذا لمتأدبى الأزهر من الطلاب فى عهده : يعرضون عليه انتاجهم ، فينقد ، ويوجه ، ويشجع ، ويكون لنقده وتوجيهه وتشجيعه أثر أى أثر فى نفوس الطلاب.

على أن السبب المباشر الذى طير اسم حفنى على أفواه الأزهريين هو ما كان يقام عادة من الحفلات فى مختلف المناسبات التى من أهمها اتمام الكتب الدراسية ، وأنت واجد فى ديوانه كثيرا من القصائد التى قيلت فى هذه المناسبات ، وان كنا نعد هذا القسم من ديوانه غير ذى غناء .

وان شئت أن تتعرف على الجيد من شعره ابان دراسته بالأزهر فاليك القصيدة التالية :

الأخلاق

المرء بالفكر لا باللحية الطولى
والفخر بالفضل لا بالرتبة الأولى
وبالخلائق تمتاز الخلائق لا
بشارة تجعل المعلوم مجهولا (١)
لو لم يخل ربها جهل الرجال به
ما احتاج منها على معناه تدليلا

(١) الخلائق الأولى : الصفات ، والثانية : طوائف الناس .

وما الـــكمال بموقوف على ســـمة
ما أوسعت قط أهل النقص تكميلا
والســـيف لو كان مقصـــودا لمنظـــره
أو للحمـــائل لم تنظـــره محمـــولا
لولا مضـــاربه ســـاوى العصى ولم
يحز اذا ما التقى الجمعان تفضـــيلا
لا يفخـــر الحر بالوجه الجميل ولا الـ
خد الأسيل ولا الاعراض ان نيلا(١)
ولا يلم بأســـباب العـــلا رجل
يمل لمتـــه دهنـــا وترجيـــلا
تظـــل مرآته ــ لولا تنفســـه ــ
مصقولة وشـــبا موســـاه مفـــلولا

ولعـــلك توافقنى على أن تلك القطعـــة على شيء من الفن الشعرى صياغة وموضوعا ، وفيها يحمل على الرتب والنياشـــين قبل الغائها بعشرات الســـنين ، وفى البيت الثالث اشارة الى ما يعبر عنه بمركب النقص ، ثم هو فى ختام القصيدة ينعى على المخنثين عنايتهم بترجيل شعورهم ، وصقل وجوههم ، ولا تنس الجناس الكامل بين (الخلائق والخلائق) فى البيت الثـــانى ، والجناس الناقص بين (يلم ويمل) فى البيت الثامن . أما التشبيه

(١) يقال اعرض : صار عريضا .

فى البيت التاسع فغاية فى الطرافة . صحيح أن التـــكنية عن الاسراف فى الزينة بحمل المرآة المصقولة قديمة ، ولكن تعـكين صفاء المرآة بالتنفس لفتة جديدة بارعة .

أما ما أشرت اليه من شعره التافه أثناء دراسته بالأزهر فمن أمثال قوله :

بشرى فقـــد ختم الـــكتاب
وبدا الهنـــاء المســـتطاب
وتحـــــددت أبحـــاثه
وتحققت بابا فبـــــــاب

ولسنا ندرى بأى البيتين تتمثل ازاء هذه المراوحة بين التحليق والا سفاف ؟

أبقول الشاعر :

فان يكن الفعل الذى ســاء واحـدا
فأفعـــاله اللائى ســـررن ألوف ؟

أم بقوله :

ولم أر فى عيـوب النـــاس عيبـا
كنقص القـــادرين على التمـــام ؟

ونختم هذا الباب بحادثة طريفة تتلخص فى أن الطلبة كانوا يتهمونه بالسطو على الغير فيما يقرض من شعر ، فغضب حفنى لكرامته ، واقترح اقامة مباراة عامة بينه وبين من يختارون من شعراء الأزهر حول موضوع يقترحه غريمـه ، فاختـير لهـذه

المنافسة الشيخ عبد الرحمن قراعة ، وقامت المباراة ، وارتجل فيها حفنى عشرات الأبيات بايعه الأزهريون على أثرها بخلافة القريض فى الأوساط الأزهرية .

٣ ـ حفنى فى دار العلوم :

كان هذا المعهد الخالد اذ ذاك لا يزال حديث عهد بالتقلب فى المهد ، ولكنه ولد مكتمل الرجولة ، وان شئت فقل : ولد عملاقا أشبه ما يكون بجامعة عامة فى عهد لا عهد فيه لمصر بالجامعات . ويعتبر انشاؤه حدثا هاما فى تاريخ الثقافة بمصر ، بل فى العالم العربى أجمع . ويقترن انشاء دار العلوم بانشاء دار الكتب ،وان شئت فقل : ولدا توأمين فى بناء واحد : هو « سراى درب الجماميز » سنة ١٨٧١ . وذلك أن هذا الرجل العظيم ـ على مبارك باشا ـ ساءه اهمال الكتب فى أقبية المساجد وغيرها ، فنفض عنها ما تراكم عليها من الغبار ، وعمل على جمعها فى المكان المشار اليه ،فكان نواة دار الكتب الحالية ، ولكنه لم يقتصر على ذلك ، بل ألحق بهذا البناء نفسه معملا لدراسة العلوم الطبيعية، وردهة للامتحانات ، والقاء المحاضرات أطلق عليها اسم دار العلوم ، ودعا الى المحاضرة فيها علماء مصر الأعلام ، وفتح بابها لكل من شاء الاستزادة من المعرفة والتعمق فى مختلف العلوم ، ثم بدا له أن يطور هذه الدراسة ، فأشار باختيار عشرة من نابغى الطلاب الأزهريين يتلقون العلم فى هذا المعهد على جهة التفرغ ، ووظف لهم مكافأة شهرية تعينهم على مواصلة السير ، ولم تمض

سنة واحدة حتى خطا الخطوة الثانية بتحويل هذا المعهد أو هذه القاعة الى معهد دراسى عام رسالته اعداد مدرسى اللغة العربيـة واللغة التركية للمدارس المصرية ، فزاد عدد الطلاب ، وجعـل قبولهم مشروطا باجتياز امتحان يعقد لنجباء الطلبة الأزهريين ،ثم أخذت دار العلوم تتطور طبقا لتطور الظروف الثقافية فى مصر ، حتى أخذت وضعها الحالى ككلية من كليات جامعة القاهرة .

ولقد قامت هذه المدرسة منذ انشائها برسالة تعـليم اللغـة العربية وآدابها على أحدث وجه ، واعداد مدرسى هذه المـادة لمختلف المدارس بمصر وغيرها من الأقطار الاسلامية ، وشـارك خريجوها فى ميادين الثقافة والتـأليف والبحث ، وفى التربيـة والتعليم والقضاء والمحاماة والصحافة ، وكان منهم من شاركوافى انشاء الجامعة المصرية ، وقاموا على بعض دراساتها ، ولا يزالون يضطلعون بهذا العبء الى الآن .

كانت مناهج دار العلوم فى الفترة التى قضـاها بها حفنى ناصف تتألف من التوحيد والتفسير والحديث والفقه الاسلامى والمنطق والآداب العربية والتاريخ والجغرافيا والرياضة وأنواع الخطوط العربية والتاريخ الطبيعى ومبادىء الطبيعة والكيميـاء واللغة الفرنسية لمن يرغب فى دراستها .

وجد حفنى فى دار العلوم ما يشبع نهمه العلمى ، وقد رأينا كيف كان يسعى سعيا يدمى الأرجل الى تعلم الكيمياء والطبيعة والأدب ابان دراسته بالأزهر ، أما الآن فقد سعت اليه بأرجلهـا

هذه العلوم ، وأصبحت تكون جزءا من صميم مناهج الدراسة بحيث لا ينتقل الطالب من فرقة الى أخرى الا بعد اجتياز امتحاناتها بنجاح .

لا عجب بعد ذلك اذا رأينا حفنى يلقى رحاله فى دار العلوم ولسان حاله يقول :

فألقت عصاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالاياب المسافر

ولا غرابة اذا وجدناه يقول فى بعض رسائله :

« حتى سمعت بدار العلوم ذات الفضل المعلوم ، فوردت منهلها الرائق ، واهتديت بنورها الشارق ، فما سمعت أذنى بأطيب مما قد رأى بصرى ، فنظمت نظرى فى سلكها ، وأطربتنى حمائم الفنون تغرد على أيكها .. الخ »

ونستطيع القول بأن حفنى ناصف قد استوى قلمه وبلغ أشده وهو طالب بدار العلوم ، ولا أدل على ذلك من اختيار الشيخ محمد عبده له لمشاركته فى تحرير الوقائع المصرية اذ ذاك ، فالمصادر التى بين أيدينا تشير الى أن مدة اسناد تحرير الوقائع الى محمد عبده كانت زهاء ثمانية عشر شهرا — من سبتمبر سنة ١٨٨٠ الى مايو سنة ١٨٨٢ .. وهذه المصادر نفسها تقول نقلا عن المنار (جـ ٨ ص ٤٠٦) : « والذين اشتركوا مع جمال ومحمد عبده

«هم ابراهيم بك اللقانى ، وحفنى بك ناصف ، ومحمد بك صالح ، وسلطان أفندى محمد ، وغيرهم » .

فاذا صح هذا ، واذا عرفنا أن حفنى ناصف دخل دار العلوم فى فبراير ١٨٧٩ ، وتخرج فيها فى ديسمبر سنة ١٨٨٢ — كان معنى ذلك أن المدة التى قضاها حفنى فى تحرير الوقائع — على سبيل القطع — فى عهد تلمذته بدار العلوم .

ومن أساتذة حفنى فى دار العلوم الشيخ حسين المرصفى صاحب كتاب « الوسيلة الأدبية لعلوم العربية » وهذا الكتاب نفسه كان من بين الكتب المقررة ، ومنهم الشيخ حسونة النواوى أحد مشايخ الأزهر فيما بعد ، أما الشيخ محمد عبده فيتضح من مقارنة التواريخ فى المراجع التى بين أيدينا بعضها ببعض — أن حفنى ناصف لم يتلق عليه دراسة فى دار العلوم أكثر من بضعة شهور : أعنى من فبراير سنة ١٨٧٩ الى سبتمبر من السنة نفسها ؛ اذ أن هذا التاريخ الأخير هو التاريخ الذى أقال فيه الخديو توفيق الشيخ محمد عبده من منصبه . وقد ذكرت عدة مصادر عن حفنى أنه تلقى العلم على محمد عبده فى الأزهر ودار العلوم ، أما مدة هذه الدراسة فى دار العلوم فقد عرفتها ، وأما مدتها فى الأزهر فينبغى ألا تكون أزيد من عام واحد وبضعة شهور ؛ اذ أن محمد عبده أحرز العالمية سنة ١٨٧٧ ، وزاول التدريس فى الأزهر من هذا التاريخ ، وقد علمنا أن حفنى ناصف غادر الأزهر فى فبراير سنة ١٨٧٩ .

على أن حفنى ناصف لم يغادر دار العلوم الا بعد أن ردّ اليها الجميل ، وبادلها احسانا باحسان ، ولهذا الموضوع قصة طريفة نجملها فيما يلى :

لم يكن الأزهريون ينظرون الى المعـاهد التى انفصلت عن الأزهر بعين الارتياح . وقد رأينا كيف انسلخت مدرسة القضاء الشرعى عن الأزهر سنة ١٩٠٧ ، ثم كيف ألغيت سـنة ١٩٢٣ . وقد كان من الممكن أن يكون هذا المصير هو مصير مدرسة دار العلوم نفسها لولا ما كانت تستند اليه من دعائم ثابتة أبقت عليها، حتى أصبحت احدى كليات جامعة القاهرة سنة ١٩٤٦ .

وحدث فى أثناء المدة التى كان حفنى يستعد فيهـا لتـأدية الامتحان النهائى بدار العلوم أن اشتدت الحملة على هذا المعهد بحجة أن ما يدرس فيه من العلوم الحديثة يضعف من شأن اللغة العربية والشريعة الاسلامية ، وللتدليل على ذلك حاول الممتحنون — ومعظمهم من رجال الأزهر — اسقاط حفنى ناصف فى الاختبار الشفوى لمادة النحو . أما علة اختيار حفنى بالذات فهى أنه كان أبرز شخصية بين الطلبة ، اذ أنه كان الأول فى امتحان الدخول ، ولم تخنه هذه الأولية فى أية فرقة من فرق الدراسة ، حتى تخرج.

واتفق أن علم الشيخ حسين المرصفى بهذه النيـة المبيتـة ، فاستدعى تلميذه حفنى ناصف ، وأوصاه بوصيتين — الأولى — أن يعد نفسه للامتحان فى مادة النحو اعدادا طيبا — والثانية —

أن يضبط نفسه ، ولا يثور اذا استثير ، بل يضع أعصابه فى ثلاجة — كما يقولون —

ثم دنا الموعد ، ونودى حفنى ليؤدى الامتحان الشفوى فى مادة النحو ، وكان مقررا لها ثلث ساعة ، فتضاعف الزمن حتى بلغ ساعتين ، والطالب حفنى هدف لوابل من الأسئلة المطبوعة بطابع التحدى ، ولسان حاله يقول :

ولقـد أرانى للرماح دريئـة
من عن يمينى تارة وشـمالى

غير أنه كان هادىء الأعصاب ، عنده لكل سؤال جواب : الأمر الذى جعله ينتزع النجاح انتزاعا ، والذى كان من نتائجه أن بقيت دار العلوم بقاء الطود الشامخ بفضـل ربيبهـا حفنى ناصف .

حفنى فى حياته العملية

١ ـ حفنى معلما :

قلنا : ان حفنى ناصف لم يكن بالرجل المجدود ، ولعل من مظاهر نحس طالعه أن يتخرج فى دار العلوم ، ويكون أول خريجيها ، ثم يدفع به دفعا ـ وهو الشاب الطموح ـ الىمدرسة الخرس والعميان ، ليقوم بتعليم ذوى العاهات ، وكأننى به تسلم عمله الجديد ولسان حاله يقول :

أفتلك عاقبتى وذاك مآلى ؟
خطوا المضاجع وادفنوا آمالى

تخرج حفنى فى يوم ١٢ ديسمبر سنة ١٨٨٢ ، وتسلم عمله الجديد فى اليوم التالى له مباشرة ١٣ ديسمبر سنة ١٨٨٢ . وهنا نتساءل : أكان اختياره لهذه الوظيفة بالذات لكفايته وحسن استعداده ؟ ربما كان الجواب بالإيجاب ، فليس كل معلم يصلح لتعليم الشواذ ، وانما يتطلب ذلك من المهارة والحذق مالا يتوفر للكثيرين . وهناك احتمال آخر ، وهو أن يكون اختياره لهذه الوظيفة بالذات مقصودا به التنكيل ، وليس هذا الاحتمال ببعيد،

بل له ما يبرره ؟ فقد كانت هذه السنة نفسها سنة قيام الثورة العرابية ، وما استتبعه قيامها من قبض الانجليز على نواصي الأمور في مصر ، وتنكيلهم بكل من آزر الثورة تنكيلا لم يقتصر على النفي والتشريد . وقد كان حفنى فى طليعة من آزروا الثورة العرابية الى درجة أنه هجر الدراسة — وكان اذ ذاك فى السنة النهائية — وتطوع بالانضمام الى زمرة المتطوعين للتدريب على الرماية وضرب النار فى قشلاق عابدين حيث كان يتم هذا التدريب ، ويشرف عليه الشيخ حسن الطويل ، وقد استغرق ذلك من حفنى قرابة شهر من أنفس أوقاته الدراسية وأشدها حرجا .

قد يكون اختيار حفنى لهذه الوظيفة للاحتمال الأول ، وقد يكون للاحتمال الثانى ، وغير بعيد أن يكون لكلا الاحتمالين من باب ضرب عصفورين بحجر .

وعلى أى اعتبار فقد تسلم حفنى عمله فى هذه المدرسة التى كانت — بغير شك — ثمرة من ثمار الوعى الجديد ؛ فقد كانت مصر الى ما قبل ذلك بفترة قصيرة حديثة عهد بالأمية المنتشرة بين السامعين المبصرين ، بله الصم المكفوفين .

ولقد أقبل حفنى على عمله الجديد — طائعا أو كارها — فأتى فيه — كما يقرر الشيخ الاسكندرى — بالعجب العجاب ، اذ تمكن فى غضون ثلاث سنوات أن يجعل الخرس يكتبون مايريدون ، ويفهمون مايكتب لهم ، وبذلك قامت الكتابة عندهم مقام اللسان والآذان ، كما تيسر له تعليم المكفوفين ألفية ابن مالك ،

ورسالة الفضالى فى التوحيد ، ومنظومة الشيخ أحمد قاسم فى علم الميقات ، وقد نبغ من بين هؤلاء الشيخ مصطفى الفلكى الميقاتى المعروف . على أنه ـ جريا على عادته ـ لم يترك هذه الفرصة تمر دون أن يزيد فى تجاربه ، ويضيف جديدا الى معلوماته . وقد بلغ من اجادته لغة الصم والبكم أن ندبته احدى المحاكم ليترجم بينها وبين رجل أصم أبكم ، فجعل حفنى يتفاهم معه بلغة الاشارة ، ثم يترجم ذلك للمحكمة نبذة نبذة ، حتى أتم ترجمة قصة كاملة أثبتت فى محضر الجلسة ، وصدر الحكم على مقتضى هذه الاشارات التى ترجمت الى عبارات .

ولم تخل مدة عهد حفنى بهذه المدرسة من بعض الدعابات الشعرية التى كان ينفس بها عن نفسه ، ومن ذلك قوله :

غلط الناس فى عرابى وسامى
حين أقصوهما الى سيلان
وابن موسى العقاد حين نفوه
مع باقى الثوار للسودان
لم يريدوا بهم نكالا . فهلا
أرسلوهم للخرس والعميان

ومن ذلك قوله :

قيل : ان المقام فيها وان طا
ل شقاء يفضى لعز وجاه

قــد رضـــينا طول الاقامة فيهـــا
واســــتعنا على الشـــقا بالله

وعلى الرغم من هذا التبرم الذى تدل عليه هذه الأبيات كان حفنى مقتنعا بسمو الرسالة التى نيط به أداؤها ، وهــذا هو سر ما وصل اليه فيها من النجاح ، ويتجلى ذلك الاقتناع فى خطبــة ألقاها باحدى الحفلات التى أقيمت بهذه المدرسة . استمع اليه يقول :

« وبعد ، فقد كانت العادة الجارية فى بلادناالشرقية أن كل من تعطلت احدى حواسه لا يباشر شيئا من أسباب المعيشة ، وانمــا يكون رزءا على أهله ، كلا على جيرته ، وكان أمثالنــا من غير المبصرين ــ على كثرة عددهم التىاقتضتها طبيعةالبلاد الشرقية ــ مجردين من العلوم النافعة والوسائل المعاشية ، وكان الصــادتون ــ على نشأتهم بين الناطقين ــ كأنهم أمة غريبة ولا ترجمان ، أو نوع من أنواع الحيوان غير الانسان ، لا سبيل الى افادتهم أو الاستفادة منهم بحال .. وقد لحظت الحكومة هاتين الطائفتين بعين عنايتها ، فأدخلتهم فى دور جديد من الحياة ، ومهدت لهم طرق الكسب ووسائل الرفعة والجاه ، فأصــبح الأولون يكتبــون ما يشاءون ، ويقرءون ما يجدون ، ويشتغلون بأعمــال مفيــدة لا تقصر في كفالة حسن المعيشة عما يشتغل به الناظرون ، وقد ظفروا بالمهم من العربية والشرعيات والرياضيات ، وكانت فيمــا

مضى من الأزمنة رابعة المستحيلات ، وظل الآخرون يتكلمون بالقلم ، وهو — كما قيل — أحد اللسانين ، ويسمعون بالطرس وهو أحد الأذنين ... الخ »

٢ — حفنى سكرتيرا :

استجابت السماء لحفنى ، فأراحته من تعليم الشواذ بمدرسة الخرس والعميان ، وشغل عملا جديدا لا يقل ارتباطا بثقافته العربية عن تدريس فروع اللغة العربية ، فضلا عما أفاده عن طريق هذا العمل الجديد من ثقافة قانونية كان لها أثرها فى تغيير مجرى حياته .

واذا كنا فى اختياره لشغل وظيفة معلم الشواذ قد أبدينا شكوكنا حول هذا الاختيار فاننا بالنسبة لهذا العمل الجديد لا نشك ، بل نحكم — على سبيل القطع — بأن الذى رشحه لهذا العمل هو ثقافته العلمية ، وشهرته الأدبية .

أما العمل الجديد فهو منصب « سكرتير » لشفيق بك منصور يكن ، فمن يكون شفيق هذا ؟ وماذا كان يعمل ، وما سر وقوع اختياره على حفنى بالذات ؟.

أما شفيق منصور بك يكن فهو ابن منصور باشا يكن صاحب القصرين اللذين كانا الى عهد قريب مقرين لمحكمة الاستئناف ومحافظة القاهرة بباب الخلق ، والى عهد قريب كان يطلق على هذين المبنيين « سراى منصور باشا » .

وأما عمله فكان يشبه ـ الى حد كبير ـ عمل النائب العمومى فى الوقت الحاضر ، وكان هذا الرجل ضليعا فى القوانين دائب السعى على ترجمتها من الفرنسية وغيرها من شتى اللغات الى اللغة العربية ؛ اذ كان القضاء فى مصر لذلك العهد يجرى على مقتضى هذه القوانين الأجنبية ، ولم تكن الأوضاع الخاصة بترجمة هذه القوانين الى العربية قد استقرت بعد ، ولم يكن شفيق بك رجل قانون فحسب ، بل كان بجوار ذلك عالما متمكنا منتجا ترك عدة مؤلفات فى الطبيعة والجغرافيا والحساب والكيمياء وغير ذلك من مختلف العلوم .

ولم يكن هذا العالم الكبير ـ على غزارة علمه ـ من التمكن فى الفصحى بحيث يتسنى له أن يؤلف ما يؤلفه أو يترجم ما يترجمه سليما من الشوائب والأخطاء . ومن هنا كانت حاجته ماسة الى أن يكون بجانبه فيما يضطلع به من مهام الأعمال أديب معترف به ذو لسان عربى مبين ، وكان هذا الأديب هو حفنى ناصف .

تسلم حفنى عمله الجديد فى أول مارس سنة ١٨٨٥ ، وظل يزاوله عاما وبعض عام ، وكانت مهمته ـ كما أسلفنا ـ تنحصر فى ترجمة القوانين وغيرها من مؤلفات شفيق منصور من مختلف اللغات الى اللغة العربية السليمة ذات الأسلوب الأدبى الرصين.

وهنا يخطر بالبال هذا السؤال : أكان حفنى يجيد اللغات الأجنبية أو بعضها الى حد يستطيع معه الترجمة منها الى اللغة

العربية ؟ والجواب على ذلك بالسلب لا بالايجـاب ، فليس بين أيدينا من المصادر ما يثبت على سبيل القطع أنه كان متمكنا فى بعض اللغات الأجنبية الى هذا الحد . ربما كان لديه المام بمبادىء اللغة الفرنسية التى كانت تدرس فى عهده بمدرسة دار العـلوم على سبيل الاختيار ، وربما كان لديه المام بمبادىء لغات أخرى أفادها من كثرة رحلاته الى أوربا ، واضطراره الى التفـاهم مع مختلف شعوبها بمختلف اللغات ، أو أفادها من كثرة معـاشرته للمستشرقين وغيرهم من مختلف البيئات ، ولكن هذا كله لا يعنى أكثر من أنه كان يستطيع التفاهم بغير العربية تفاهما لا يخلو من عسر ومشقة ، لا أنه كان يجيد هذه اللغـات اجادة تمـكنه من الترجمة بالمعنى المعروف .

وعلى ذلك فنحن مضطرون الى تفسير الترجمة التى كان يقوم بها فى القوانين وما اليها بأنها ليست ترجمة من اللغات الأجنبية الى العربية ، وانما هى ترجمة من العربية الدارجة أو كيفما اتفق الى العربية الفصيحة المحكمة النسج الدقيقة التركيب : بمعنى أن شفيق منصور أو خلافه كان يتولى الترجمة بالمعنى المعروف فى المرحلة الأولى ، ثم يتولاها حفنى فى المرحلة الثانية الى الصيغة النهائية التى تستقر عليها .

ولهذا النوع من الترجمة نظائر وأشباه ، فنحن نعلم مثلا أن السيد مصطفى لطفى المنفلوطى قام بترجمة بضع روايات : كرواية « فى سبيل التاج » ورواية « مجدولين » ونعلم بجانب ذلك أن

المنفلوطى لم يكن يجيد غير العربية ، واذن فقد كانت هذه الترجمة على النحو الذى ألمعنا اليه . وفى أغلب ظننا أن الترجمة التى قام بها حافظ ابراهيم لرواية « البؤساء » انما كانت على هذا الغرار

بقى أن نعرف مدى تأثير هذه الفترة التى قضاها حفنى سكرتيرا لشفيق منصور فى حياته ، والواقع أن هذه الفترة كانت ذات أثر بالغ فى تغيير مجرى هذه الحياة ، اذ تعتبر بوجه عام أولى درجات السلم الذى تسلقه حفنى الى كرسى القضاء ، كما سنتناول ذلك بشىء من التفصيل فيما بعد .

وقبل أن نختم هذا الفصل ينبغى الاشارة الى أن ملازمة حفنى لشفيق منصور هذه الفترة — وان قلت — كانت ذات أثر بالغ أيضا فى توطيد العلاقة ، بل الصداقة بين الطرفين ، لذلك لا نعجب اذا رأينا حفنى ناصف يبكى شفيق منصور بعد وفاته بدموع الخنساء على أخيها صخر ، وانك لتحس أثر هذه اللوعة فى قوله من قصيدة أنشأها فى رثائه :

هل بعد بعدك يا شفيق يروق
عيش لصب قلبه محروق ؟
وتشوقه الدنيا وأنت صددتها
وتميل عنه الى النوى ويطيق ؟
ها قد سبقت الى الممات واننى
ليلذ لى شوقا اليك لحوق

لا خـير بعـدك فى الحيـاة فانهـا
كـــدر وخالص ودها تلفـيق
فسرورها حزن وخـير نعيمـها
بؤس وغاية جمعهـا تفـريق

٣ ـ حفنى فى مدرسة الحقوق :

وليس معنى ذلك ـ فيما يبدو لنا ـ أن مرحلة اختيار حفنى للقيام بالتدريس فى مدرسة الحقوق هى المرحلة التالية مباشرة لمرحلة سكرتيريته لشفيق منصور ، اذ أن ثمة فاصلا هو المدةالتى قضاها بمدينة فينا باعتباره عضوا فى مؤتمر المستشرقين ، ولن نقف طويلا عند هذه الفترة ، وانما نتركها ونترك ما قدمه فيهامن الأبحاث الى حين .

بدأت هذه المرحلة من حياة حفنى فى سنة ١٨٨٧ ، واستمرت الى ١٨٩٢ ، ولسنا نشك فى أن ما استفاض به الحديث عن علمه وأدبه كان سبب اختياره لهذه الوظيفة:وظيفة مدرس لمادة الانشاء القضائى بمدرسة الحقوق . ولسنا نعلم أكانت هذه المادة بين مواد الدراسة فى مدرسة الحقوق من يوم انشائها ، أم رئى ادخالها ، فكان أول مدرس لها حفنى ناصف ؟ ولسنا نعلم كذلك الى أى مدى بقيت هذه المادة تدرس بتلك المدرسة ؟ فنحن لا نعلم مادة تحمل هذا الاسم فى أية كلية من كليات الحقوق بأية جامعة من الجامعات المصرية .

واذا جاز لنا أن نستطرد فى هذا الموضوع قلنا : ان تقرير مثل هده المادة بمدرسة الحقوق لم يكن أقل لزوما لها من تقرير دراسة القوانين ؛ فاننا نقرر ـ فى ثقة واطمئنان ـ أن الأدب ألزم لرجال القانون منه لرجال الصحافة وخطباء المنابر ، فكثيرا ما يتوقف فقه المادة القانونية على فقه اللغة نفسها ، كما أن حيثيات الأحكام التى يصوغها القضاة، والمرافعات التى يقوم بها المحامون، والتقارير التى يقدمها النائب العمومى ووكلاؤه ـ كل هذه تتطلب من دقة الصياغة واحكام التركيب مالا يقوم به الا أديب . والواقع أننا كثيرا ما نسمع مرافعات أو نطلع على حيثيات هى بالقطع الأدبية أشبه منها بالأساليب القضائية .

بين أيدينا الآن منهاج ضاف لمادة الانشاء القضائى الذى كان يقوم حفنى بتدريسه ، غير أن هذا المنهج فى قصاصات متآكلة كلها بخط حفنى نفسه ، وتشير المراجع التى بين أيدينا الى أن هذه القصاصات ليست الا عناوين لفصول كتاب ضخم ألفه حفنى ليكون مرجعا لمدرسى هذه المادة من بعده ، فأين هذا الكتاب ؟ سؤال لا جواب عليه الآن ، وقد يجيب عنه فى المستقبل لسان الزمان الذى لا يفتأ يخرج لنا كل يوم جديدا من آثار المصريين القدماء . وربما سلطنا على هذا الموضوع بعض الأضواء عند الكلام عن مؤلفات حفنى ناصف .

ولم تكن تدريس هذه المادة يتطلب مجرد متخصص فى فروع اللغة [illegible]بية وآدابها ، وانما يتطلب فوق ذلك خبرة بالمسائل

القانونية ، والمشاكل القضائية ، فهل كان اختيار حفنى لهذا المنصب لأنه يكاد يكون الفرد الوحيد الذى يجمع بين هاتين الثقافتين ــ الثقافة العربية والثقافة القانونية ــ ؟ هذا ما نرجحه ، بل هذا ما لا نشك فيه .

ولم تكن مادة الانشاء القضائى هى المادة الوحيدة التى كان حفنى يقوم بتدريسها فى مدرسة الحقوق ، بل كان يقوم أيضا بدراسة المنطق والبلاغة وآداب المناظرة وما يدور فى هذا الفلك من المواد .

ولسنا نجازف ، فننسب الفضل كله الى حفنى ناصف فى تخريج أعلام الأدب من رجال القضاء : أمثال أحمد شوقى ومصطفى كامل وعبد العزيز فهمى ولطفى السيد وأحمد زكى شيخ العروبة وتوفيق رفعت وعزيز خانكى وتوفيق نسيم ... الى آخر هذه السلسلة التى لا تنتهى حلقاتها من الأسماء التى لمعت فى سماء الأدب كما لمعت فى سماء القضاء ، حتى كان منهم أساطين فى الشعر والخطابة ، وكان منهم من تولى رياسة المجمع اللغوى نفسه ، بالاضافة الى ما عرفوا به فى ميادين القضاء والمحاماة . كل هؤلاء كانوا تلاميذ حفنى ناصف ، ومهما تحفظنا فى القول فلابد أن ننسب اليه شيئا من الفضل ، ان لم ننسب اليه كل الفضل ، وهل تريد أدل على ذلك من أنه ينطق أمثال مصطفى كامل وتوفيق نسيم ــ وهما بعد طالبان ــ بشعر سليم البنيان مستقيم الأوزان ؟.

ولم تكن الفترة التى قضاها حفنى فى مدرسة الحقوق مقصورة على تدريس ما أشرنا اليه من المواد ، وانما كان فيها - كما كان فى كل أطوار حياته - معلما متعلما فى آن واحد ، فقد أتاحت له هذه الفرصة الاتصال من جديد برجال القانون ، فتبادل معهم المعارف : أكسبهم أدبا ، وأكسبوه قانونا ، وبذلك تعتبر هذه الفترة مكملة لفترة سكرتيرته لشفيق منصور فى تحقيق الثقافة القانونية التى صعدت به الى كرسى القضاء ،وتقول المصادر التى بين أيدينا : ان الأمر فى دراسته للقوانين ابان تدريسه بمدرسة الحقوق لم يقف عند حد الاحتكاك بأساتذة المدرسة ، بل انه اشترك رسميا فى ترجمة القوانين المصرية فى هذه الفترة ثلاث مرات مع نخبة من رجال القضاء .

ولقد حفلت هذه الفترة من حياة حفنى بانتاج من نوع آخر :ذلك أن نظارةالمعارف فى ذلك الوقتكانت قدبدأتفىبلورة الكتب الأزهرية فى علوم النحو والصرف والبلاغة ، حتى تكون سهلة المتناول بالنسبة لطلبة المدارس المدنية ، فنشرت كناتتها ، فوجدت حفنى ناصف أصلبها عودا ، فاختارته مع نخبة منزملائه لهذا الغرض ، فأتمه على أحسن وجه ، وسنرجىء الكلامعن هذه الكتب حتى يحين موضع الكلام عن مؤلفاته ، ولكننا نتعجل ، فننقل ما قاله بعض رجال القانون فى هذه الكتب . قال : « ان هذه الكتب فى تبويبها وصياغتها المحبوكة تحاكى مواد القانون» ولا غرابة فى ذلك فقد أصبح حفنى من أكبر صاغة القوانين .

٤ ـ حفنى فى القضاء :

هل يسمح لنا حفنى ناصف أن نداعبه على الطريقة التى كان يداعب بها أصدقاءه ، فنتهمه بالسطو على القــوانين التى كان يترجمها ليستغلها لمصلحته الشخصية ؟ لقد حان الوقت المناسب لاستغلال حفنى ناصف لما فى جعبته من مواد القانون : ذلك أن الحكومة فى هذه الفترة شرعت فى تعميم المحاكم الجزئية بالمراكز بعد أن كانت مقصورة على الحواضر ، ولم يكن العــدد الذى تخرجه مدرسة الحقوق ليفى بالحاجة ، ويســد هــذا النقص ، فأعلنت عن امتحان يعقد بعد عام من تاريخ الاعلان فى القوانين على أن يعين من يجتازه بنجاح فى سلك القضاء .

حينئذ وجد حفنى أنه قد سنحت له الفرصة الذهبيــة التى تنقذه من عناء التدريس ، وان كان فى أعلى المدارس مقــاما ، فشرع يعد للامتحان عدته ، ويأخذ له أهبته ، وقد عرفت أنه كان لديه من الثقافة القانونية رصيد ضخم ، كون بعضه من ترجمــة القوانين فى عهد سكرتيريته لشفيق منصور ، وكون بعضا آخر من نفس هذه الترجمة ابان تدريسه بمدرسة الحقــوق ، وكــون بعضا ثالثا من ملابسته لرجال القضاء مدة تدريسه بهذه المدرسة ، على أن هذا الرصيد كله ـ على ضخامته ـ لم يكن فى نظره كافيا كسلاح يخوض به معركة الامتحان ، فماذا يفعل ؟

تصادف فى تلك الفترة أن عاد حسين باشا رشدى من فرنسا بعد أن أتم فيها دراسة القوانين ، وقد اشتغل عقب عودته بمــا

يشبه الترجمة التى سبقت الاشارة اليها غير مرة ، وكانت حاجته ماسة بصفة خاصة الى رجل يجمع بين الثقافتين ـ الثقافة الدينية والثقافة القانونية ـ لكى يستنبط من الفقه الاسلامى ألفاظا يمكن احلالها محل المصطلحات الفرنسية ، وقد وجد حسين باشا رشدى ضالته المنشودة فى شخص حفنى ناصف ، فعرض عليه أن يساعده فى هذه المهمة ، فلم يتردد حفنى فى القبول على شرط واحد : هو أن يبادله علما بعلم ، وخدمة بخدمة ، وتم الاتفاق بين الطرفين على أن يقوم حفنى من جانبه باستنباط هذه الألفاظ لحسين رشدى ، ويقوم له هذا بتكميل ماينقصه من القوانين التى تتطلبها تأدية الامتحان ، وبهذه الطريقة أعد نفسه على أكمل مايكون الاعداد .

ثم عقد الامتحان فى الموعد المضروب ، وكما تعود حفنى أن يجلى فى كل امتحان كان المجلى أيضا فى هذا الميدان ، ومن هذا التاريخ سنة ١٨٩٢ بدأحفنى عهدا جديدا فى تهذيب النفوس لا بالقاء الدروس ، بل بالقاء المجرمين فى غيابات السجون .

على أن لنا وقفة عند هذا الحد من ترجمة حفنى قبل أن يشغلنا الحديث عن سيرته فى القضاء وذلك أننا رأيناه فيما سبق أن نيط به من الأعمال كان أشبه بالرائد الذى يسلك الطريق لأول مرة ، فقد رأيناه فى مدرسة الخرس والعميان يزاول عملا لم تؤهله له دراسته ، ولكنه يؤديه بنجاح منقطع النظير ، ثم رأيناه ابان سكرتيريته لشفيق منصور يضطلع بصياغة القوانين وترجمتها ،

وهو أيضا عمل خارج ـ الى حدما ـ عن دائرة اختصاصه ، ولكنه ينهض بهذه المهمة على أحسن وجه ، ثم رأيناه فى مدرسة الحقوق يقوم بدراسة مادة الانشاء القضائى ، وهى مادة لا تمت الى ثقافته بصلات وثيقة العرا متينة الأسباب ، وأخيرا وجدناه يفرض نفسه فرضا على رجال القانون ، ولا تتصل مادة تخصصه بمادة تخصصهم من قريب أو من بعيد . فهل لنا أن نستخلص من هذا كله أن شخصية حفنى ناصف كانت خارقة المواهب والاستعدادات ؟ أغلب الظن أن الأمر كذلك ، وأغلب الظن أن هذا الرجل لو عهد اليه بعمل فى ميدان الطب أو الهندسة لأنتج فيه انتاجه فى كل ما نيط به من الأعمال . واذا كان العالم الطبيعى أرشميدس يقول : « أعطنى رافعة ومحور ارتكاز وأنا أرفع لك الكرة الأرضية » فان أمثال حفنى ناصف يجعلوننا نقول : اعطنا ملكة واستعدادا ونحن نكل الى صاحبهما مالا يخطر بالبال من الأعمال .

ثم نعود الى حفنى فى القضاء ، فنقول : انه سلخ فى توليه أطول مدة سلخها فى عمل ، اذقضى فيه زهاء عشرين عاما من سنة ١٨٩٢ الى عام ١٩١٢ ، تقلب فى أثنائها فى عدة مناصب قضائية كان آخرها منصب وكيل محكمة طنطا الكلية ، ونال فى أثنائها رتبة البكوية من الدرجة الثالثة سنة ١٨٩٢ ، ثم رتبة البكوية من الدرجة الثانية سنة ١٨٩٧ ، أما البكوية من الدرجة الأولى فلم ينلها الا عندما أحيل الى التقاعد سنة ١٩١٥ . وأغلب الظن أنه كان يقابل هذه الرتب بهز الكتفين ، ولم لا ؟ وهو القائل فى صباه :

المرء بالفكر لا باللحية الطولى
والفخر بالفضل لا بالرتبة الأولى
وبالخلائق تمتاز الخلائق لا
بشارة تجعل المعلوم مجهولا

ويكاد ينعقد شبه اجماع من الذين تحدثوا عن حفنى قاضيا على أن أحكامه كانت أمثلة تحتذى ، وعلى أنه كان يتصرف فى نصوص القانون الحرفية ، وكان يجتهد عندما يعوزه النص الصريح فيكون اجتهاده من قبيل الاجتهاد الذى يكسب صاحبه أجرين لا أجرا واحدا .

على أن أحكامه من حيث اصابتها ، وانطباقها على نصوص القوانين لها أهميتها — من غير شك — عند رجال القضاء ، أما أنا فكم كنت أود العثور على طائفة من هذه الأحكام أسرح طرفى فى حيثياتها ، لأرى معلم الانشاء القضائى حين يزاول هو مهنة الانشاء القضائى .

أما من حيث النزاهة وتوخى العدالة فى أحكامه فقد كان مضرب المثل فى ذلك ، كما كان مضرب المثل فى الشجاعة الأدبية عند اصدار هذه الأحكام التى كثيرا ماجنت عليه تلك الجناية التى يعنيها المتنبى بقوله :

لولا المشقة ساد الناس كلهمو الجود يفقر والاقدام قتال

واليك حادثين حدثا له ابان توليه القضاء نسوقهما كشاهدين على مانقول :

١ ـ حدث أن كان لأحمد باشا المنشاوى قضية معروضة على حفنى ناصف وهو قاض بمدينة طنطا ، والمنشاوى باشا ـ كما هو معروف ـ من كبار الاقطاعيين فى ذلك العهد ، وكان موضوع القضية هاما الى درجة أنه أرق هذا الثرى الكبير .ولكن هؤلاء الأثرياء يعتقدون أن المال يسيل اللعاب ، ويأتى بالعجب العجاب ، فهداه تفكيره الى الاتصال بحفنى من هذا الباب ، غير أنه لم يكن يجهل من هو حفنى ؟ اذن فليشرك الأدب مع المال فى اتمام هذا الاتصال . حينئذ اتصل المنشاوى باشا بشاعر كبير كان من خلصاء حفنى ، ليكون موصلا جيدا ، وحلقة اتصال بين الطرفين وما بدأ الشاعر يلوح قبل أن يصرح بمهمته حتى اربد وجه حفنى وتغضنت أساريره ، وجابه صديقه بقوله : هذا فراق بينى وبينك .

٢ ـ حدث أيضا وهو قاض بطنطا أن تظاهر طلبة المعهد الأحمدى ضد الخديو عباس حلمى الثانى ، وهتفوا بسقوطه وسقوط الانجليز معا ، وانتهت المظاهرة بقضية اتهم فيها هؤلاء الطلبة بالعيب فى ذات الخديو المقدسة ، وبالتمرد على قوانين الدولة ، وكان أشجع القضاة قلبا وأكثرهم عدلا فى مثل هذه القضية الحساسة تخونه شجاعته كما يخونه عدله أمام قوة العرش وقوة المستعمر ، ولكن حفنى ناصف كان ذلك الرجل الذى يحب قيصر ولكن الحق أحب اليه من قيصر ، أو بتعبير أصح كان ذلك الرجل الذى يبغض قيصر ، ويحب الحق ، فلم يتردد فى تبرئة

الطلبة،ولم يقتصر الحكم على هذه التبرئة،بل شفعها بادانة محب باشا مدير الغربية ــ على مايبدو من سياق القصــة ــ وصنيعة العرش والانجليز .

ولقد كانت أحكامه الوطنية بصفة عامة ، وهذا الحكم الأخير بصفة خاصة تعتبر فى نظر العرش والمستعمر مؤازرة للحــركات الوطنية التى لاينظران اليها بعين الارتياح ، وهذا يفسر لنا مالاقاه حفنى فى القضاء من عنت واضطهاد . واذا كان القاضى يتمتــع بحصانة تقيه شر العزل فهناك التشريد والنقل ، وهناك تأخــير الدرجات ، والتخلى فى الترقيات ، واليك الحادث التالى كشاهد على مانقول :

حدث أثناء توليه القضاء أن فكر بعض المصلحين ــ وحفنى فى طليعتهم ــ فى انشاءجامعة مصرية ــ كما سنفصل ذلك فيمــا بعد ــ ويبدو أن الانجليز لم يكونوا ينظرون الى هذا العمل بعين الارتياح ، لأنهم لميكونوا يريدون لمعاهد التعليم أكثرمن أنتكون بمثابة قوالب لصب الموظفين ، ولما رأى المستشار القضائى تفانى حفنى فى هذا المشروع نقله من القاهرة الى طنطا ، غير أن هذاالنقل لم يحد من نشاطه ، فقد كان يسافر يوميا من طنطا الى القاهرة ، وحينئذ ضرب المستشار ضربته الحاسمة بنقله الى قنا .

ويظهر أن متاعب حفنى فى القضاء لم تكن مقصــورة على ما يلاحقه من عنت واضطهاد ، بل كان بجوار ذلك يرزح تحت عبء ضغط العمل ، وتكدس القضايا : الأمر الذى كان كفيــلا

يصرفه عن كل انتاج أدبى ، لولا أن حب الأدب يجرى منه مجرى الدم فى الشرايين . استمع اليه يقول فى خطاب بعث به الى صديقه محمد كامل تيمور يعتذر فيه عن عدم الحضور الى حفل عرس دعاه اليه : « ... ولم يمنعنى عن الحضور طول الشقة ، أو مخافة حصول المشقة ، لأن الصعب فى طلاب شهود طلعتكم سهل ، ودون اجتناء العسل ماجنت النحل ، وانما منعنى خصومات منوطة بأوقات ، وأعمال مربوطة بآجال ، فاذا جاء أجلها تحتم عملها ، فاضطررت لأن أقيم ، وأسطر هذا الرقيم .. الخ »

ويظهر أن هذا الارهاق الذى كان يعانيه حفنى من ضغط العمل كان مضروبا مشتركا بين سائر القضاة فى ذلك العهد فهاهو ذا الشيخ محمد عبده يشكو نفس الشكوى فى خطاب بعث به الى حفنى ناصف يقول فيه : « .. أما زيادة العمل فى بلادنا فلا تقضى بزيادة العمال ، لأن الآمر يأمر ، وعلى العامل أن يأتمر سواء أطاق أم ضاق عليه الخناق أو أصيب بالخناق ، أو هدد الوظيفة بالطلاق الخ ... » .

على أن ارهاق حفنى واضطهاده مدة عمله بالقضاء قد أنطقاه بالشكوى المريرة فى قصائد يغص بها ديوانه ، وتمنعنا من ايرادها خشية الاطالة ، ولكننا نرفه عن القارىء بايراد هذه المساجلة الطريفة التى دارت بين حفنى والشيخ محمود الرافعى ، فان فيها حكما من أحكامه القضائية بتبرئة قاتل يستحق الاعدام .

قال الرافعى :

أيا قاضى الهـــوى ما الحـــكم فيمن
أباح القلب فيـــــــه عن تراض ؟
فســـل مضـــارع القمرين لحظـــا
عليــــــه معـــربا أمـــر المواضى
فهل جرحى العيـــون لها قصـــــاص
بحـــــكمك فاقض لى ما أنت قاض ؟

فأجابه حفنى :

أنزه لحظى المحبـــوب عن أن يكون عليهما أى اعتـــراض
فانهما ــ وان قتلا ــ مراض وقد رفع الجنـــاح عن المراض
على أن ليس فى هذا قصاص فقد كان القتـــال على تراض

وحكم البراءة ــ كما ترى ــ مبنى على حيثيتين (الأولى) أن القاتل ــ لحظ الحبيب ــ مريض ، ولا حـــــرج على المريض (والثانية) أن القتيل خاض المعمعة راضيا ، وهو يعـــلم أن فيهـــا حتفـــــه .

٥ ــ حفنى فى الجـــــامعة

ونقصد بالجامعة الجامعة المصرية القديمة التى عرفت مصرعن طريقها التعليم الجامعى لأول مرة ، والتى كان انشاؤها وليـــد ارادة الشعب وبفضل نشاط رجاله ، والاكتتاب بماله .

وليست مرحلة قيام حفنى ناصف بالتدريس فيها مرحلة مستقلة قائمة بذاتها ، بل هى مندمجة فى مرحلة اشتغاله بالقضاء ، فقد كان يزاول العملين فى وقت واحد : احدهما صباحا والآخر مساء .

وقبل أن ندخل فى تفاصيل هذه المرحلة من حياة حفنى نرى تسليط بعض الأضواء على تاريخ انشاء هذه الجامعة التى كانت بمثابة النواة لما تتمتع مصر به من جامعات .

لم يكن للمصريين الى ذلك العهد سنة ١٩٠٦ عهد بالتعليم الجامعى ، اللهم الا ما ألفوه من الدراسات الأزهرية ، وما قرءوه فى تاريخهم القديم من جامعة عين شمس فى عهد الفراعنة ،وجامعة الاسكندرية ، فى عهد البطالسة .

وكان من آثار الوعى الثقافى الذى أوردنا أسبابه فيما مضى أن تمرد المصريون ، ولا سيما المستنيرون منهم على الأوضاع الثقافية القائمة التى تتلخص فى انشاء مدارس لصنع الموظفين ، وقد حمل لواء الدعوة الى انشاء اول جامعة جماعة من التقدميين وعلى الأخص من سبق له منهم دراسة بجامعات أوربا ، ورأى بعينه كيف تقوم الجامعات ، وسمع بأذنه مايلقى فيها من محاضرات . ولقد آزرت الصحف هذا المشروع ، وتبارى الكتاب فى تأييده حتى أصبح كما يقول الشاعر عزيز أباظة :

كان حلما فخاطرا فاحتمالا ثم أضحى حقيقة لاخيالا

ولقد بلغ من فورة الحماس لمشروع الجامعة أن فردا واحدا هو أحمد باشا المنشاوى تطوع بتنفيذه جملة على نفقته ، غير أن المنية عاجلته ، فلم يمت المشروع بموته ، وانما تبناه من بعده مصلحون آخرون كلهم أحمد باشا المنشاوى حماسا ، وان لم يكونوه ثروة ومالا .

وقد عقد أول اجتماع لهذا الغرض بتاريخ ١٢ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، وكان الاجتماع فى منزل القاضى سعد بك زغلول. ويتكون من سبعة عشر رجلا من بينهم حفنى ناصف ، وقد اسفر هذا الاجتماع عن دعوة عامة للاكتتاب فى المشروع موجهة الى طوائف الشعب ، وقد تضمنت هذه الدعوة رسم الخطوط العريضة للمشروع . ومما هو جدير بالذكر ان أحد المتحمسين للفكرة ـ قاسم أمين بك ـ طلب من اللورد كرومر معاضدة المشروع ماليا فكان جوابه أن هذا العمل يحتاج الى روية وأن الحكومة لاتمد يدها بالمساعدة الا اذا برهن المصريون على أنهم جادون .

ولم يفت هذا فى أعضاد المصريين ، وانما دللوا ماوسعهم التدليل على أنهم جادون وغير هازلين ، فتوالت الاكتتابات ، وتوالى انعقاد الجلسات ، وآلت سكرتيرية اللجنة المشكلة لهذا الغرض فى بعض هذه الاجتماعات الى حفنى ناصف ، ونيط به اعداد اللائحة لهذا المشروع ، فقام باعداده بمساعدة زميلين آخرين : هما مرقس حنا ، وعلى فهمى . ولم تحل سنة ١٩٠٨ حتى

دخل المشروع فى حيز التنفيذ بفضل نشاط القائمين عليه ، وفى مقدمتهم حفنى ناصف الذى أسند اليه منصب رياسة مجلس ادارة الجامعة ، كما يتضح ذلك من المحضر التالى :

« جلسة يوم السبت ٧ مارس ١٩٠٨

انه بنادى المدارس العليا قد اجتمع فى التاريخ المذكور بعالية فى الساعة الرابعة بعد الظهر كل من سعادة محمد علوى باشا ، حسين بك جمجوم ، حسن بك سعيد ، مرقس أفندى حنا ، حفنى بك ناصف ، قاسم بك أمين ، يعقوب أرتين باشا ، لوزينا بك ، حسين باشا رشدى .

وقد انتخب حضرات الحاضرين حضرة حفنى بك ناصف لرياسة مجلس ادارة الجامعة »

ولم يقف تقدير الجامعة لخدمات حفنى عند هذا الحد ، بل كان أول عضو شرف بلجنة الجامعة ، كما يتضح ذلك من وثيقة أخرى تجد نصها فى صفحة ٢٤٢ من تقويم دار العلوم . ومن هاتين الوثيقتين نعلم الى أى حد كان بلاء حفنى فى انشاء الجامعة المصرية القديمة ، ولم يكن انتخابه بعد ذلك لالقاء ما ألقاه من المحاضرات على طلبة الجامعة بمثابة مكافأة له على ما أسدى اليها من أياد ، وانما كان هذا الانتخاب بناء على ما ورد فى البند (رقم ٣) مما ورد فى الدعوة العامة للاكتتاب التى سبقت الاشارة اليها ، اذ تقول

هذه المادة : « ويقوم بالتدريس فى هذه الجامعة اساتذة من رجال العلم البارزين هنا أو فى أوربا .. الخ »

أما المادة التى كان حفنى يقوم بتدريسها فى الجامعة فهى مادة تاريخ الأدب العربى ، وكان يلقيها على طلبة كلية الآداب ، وكان من بين تلاميذه فيها الدكتور طه حسين ، وليس بين أيدينا مايحدد — على وجه الدقة — مدى المدة التى خدم فيها فى الجامعة ، ولكنها على وجه العموم لم تكن قصيرة بدليل أن محاضراته فى هـــذه المادة طبعت منها جامعة القاهرة أخيرا مايكون ثلاثة أجزاء باســم « الادب العربى » أو « حياة اللغة العربية » وربما كان لهـــذه الاجزاء بقية لم تطبع بعد : شأنها شأن كثير من مؤلفاته .

وتقرر المراجع التى بين أيدينا أن محاضرات حفنى كانت معينا عذبا يغترف منه كل من خلفه فى دراسة هذه المادة ، كما تقــرر أنه لم يخدم الجامعة بجهوده فحسب ، بل خدمها بجهده وماله ، على رقة حاله وكثرة عيــاله ، فقد بلغت تبرعاته زهاء ٨٧٠ جنيه كما أنه تنازل عما يستحقه على عمله فيها من مرتبات، ليضاف الى رصيدها من الاكتتابات .

هذا ، ولعلك لم تنس بعد أن هذه الجامعة قد تم انشــاؤها تحت سمع الاستعمار وبصره ، ولكن بغير ارادته ، وان اللورد كرومر كافأ حفنى ناصف على هذا النشاط « جزاء سنمار » بنقله الى قنا ، حتى يحول بينه وبينها حيلولة تامة . وقد كان .

٦ ــ حفنى مفتشــا أول

لسنا نعرف أكان نقل حفنى الى وظيفة مفتش أول للغة العربية فى يولية سنة ١٩١٢ مقصودا به تعويضه عما أصابه من التخلف فى القضاء ؟ أم كان مقصودا به ابعاده عن هذا القضـــاء ، حتى لاتتكرر مأساة تبرئة المتظاهرين ضد العرش والاستعمار من طلبة المعهـــد الأحمـــدى .

يؤيد الرأى الأول جلال المنصب الذى نقـــل اليه وخطره ، ويؤيد الرأى الثانى أنه نقل الى هذا المنصب ، أو رقى اليه دون أن يكون لهذا النقل أو لهذه التـــرقية أثر مادى فى درجتـــه أو راتبـــه .

وأيا كان سبب اسناد هذا المنصب اليه فقد تسلمه حفنى فى التاريخ السابق ، وظل يشغله حتى أحيل منه مباشرة الى المعاش فى شهر فبراير سنة ١٩١٥ .

كان لهذا المنصب اذ ذاك خطره اذ أن صـــاحبه يتحكم فى مصاير اللغة العربية والدين الاسلامى ، وما يتعلق بهما من خطط ومناهج وكتب ، ومن يقومون بتدريسها ، وهم أكثرية فى وزارة المعـــارف ، وكان يليه قبل حفنى مباشرة الشيخ شريف ، وهـــو رجل له مركزه العلمى والاجتماعى ، وقبل الشـــيخ شريف كان الشيخ حمزة فتح الله ، وهو من هو فى علمه وأدبه ، وكان حفنى

خير من يسد فراغ هذين العالمين العلمين ، وخير من يشغل هذه الوظيفة الحساسة .

فلم تك تصتـــــلح الا لــه ولم يك يصــلح الا لهـــــا

على أنه لم يقبلها الا كارها لسبب واحد هوخشية الاصطدام بدكتاتور المعــارف الحاكم بأمره فيها فى ذلك الوقت ، ونعنى به «دوجلاس دنلوب» مستشار المعارف الانجليزى الذى كان معروفا بسياسة الحد من التعليم ، واضطهاد المصلحين . والذى نرجحه أنه حدث لحفنى ماكان يتوقعه من الاصطدام بدنلوب بدليل أنه لم يوافق على مد خدمته بعد انتهائها ، على الرغم من رجاء عــدلى باشا يكن وزير المعارف ، وحسين باشا رشدى رئيس الوزارة اذ ذاك ، وهكذا أسلم المستشار القضائى حفنى ناصف الى جــلاد آخر هو مستشار المعارف ، فكان الأمر كما يقول المثل العــربى: « فى كل واد أثر من تعلبة ».

وعلى أى حال فقد اضطلع حفنى بعمله الجديد فى كفــاية واخلاص : شأنه فى كل عمل تولاه ، ورأى تفتيش اللغة العربية فى أيامه عهدا ذهبيا حافلا بالنشاط ، حتى ليمكن القول بأنه وضع دستورا جديدا لتنظيم سير العمل كان هدى ونورا لكل من جاء بعده ، وكان من أهم ماوجه عنايته اليه تنقية العربية الفصــحى من العامى والدخيل ، واستبدال كثير من المصطلحات العــربية بنظائرها من الألفاظ الغربيه ، حتى يتسنى استعمالها فى تدريس

العلوم الحديثة ، وكانت هذه خطوة فسيحة المدى فى سبيل
تعريب هذه العلوم . ولعلك مما سبق عرفت أن حفنى ناصف يكاد
يكون سيج وحده في هذا الباب : باب التعريب الذى اشتغل
به فترة طويلة عندما كان يقوم بترجمة القوانين .

وقد يكون من الطريف أن نسرد لك هذا الحادث الذى حدث
لحفنى فى عهده بالاشراف على التفتيش :

حدث أن وزيرا من ذوى النفوذ اذ ذاك كان له ابن متقدم
لاحدى الشهادات العامة ، وكان هذا النجل الكريم يشكو ضعفا
فى مادة النحو وحفنى بحكم منصبه اما أن يضع أسئلة امتحان
اللغة العربية ، واما أن يعتمدها بعد أن يضعها واضعها ، والوزير
الخطير يعلم ذلك حق العلم ، فما كان منه الا أن دفع بولده الى
حفنى بحجة تلقينه بعض دروس فى مادة النحو ، وقبل حفنى
بسلامة نية ، وبدأ يراجع المنهج للطالب بابا بابا ، وحينئذ ضاق
الفتى ذرعا بهذه الطريقة ، وأومأ من طرف خفى الى أنه اختصارا
للوقت لايريد استيعاب الكتاب ، وانما يريد الاقتصار على النقاط
الهامة التى هى مظان وضع الأسئلة وحينئذ أفاق حفنى من غفوته
ودفع بالطالب الى أبيه مضحيا به وبصداقته .

٧ ــ الى المعاش

ثم دنا الموعد المضروب لبلوغ حفنى سن الستين ــ ٢٥فبراير
سنة ١٩١٥ ــ فأحيل الى المعاش ، فودع عهد الوظائف الحكومية

تاركا خلفه صحائف بيضاء ، بل صحائف سطر فيها التاريخ آيات بل سورا من الكفاح والكفاية ونزاهة اليد وعلو النفس ،حتى كأن البارودى يتحدث بلسانه حين يقول :

راجعت فهرس أيامى فمالمحت   بصيرتى فيه مايزرى بأعمالى

غيرأننا نعجب ، وحقلنا أن نعجب كيف يفرق مثل حفنى ناصف من احالته الى المعاش ؟ ألأن هذه الاحالة نذير الموت ؟ كلا ، فهو الرجل الذى طالما وضع حياته على كفه فى مغامراته الوطنية . اذن فهل كان مصدر هذا الفرق اختزال مرتبه ؟ نقول أيضا : كلا ــ وان صرح هو بذلك فى شعره ــ فان بين أنامل حفنى قلما لو حفر بسنه الأرض لأخرج منها مناجم ، لامن الذهب الأبيض أو الذهب الأسود ، بل من الذهب الأحمر الوهاج . اذن لم يبق أمامنا الا افتراض واحد نرجحه : وهو أن طول الف الشيء يجعله ممتزجا بدم صاحبه فاذا فارقه حز فراقه فى نفسه حز المدى والمواسى ، ولاسيما بالنسبة للنفس الشاعرة المرهفة الاحساس . واذا كان المتنبى يقول :

خلقت ألوفا لو رجعت الى الصبا   لفارقت شيبى موجع القلب باكيا

فلم لا يبكى حفنى لا على شيب ودعه ، بل على دنيا من العمل، وفيلق من الأصحاب والخلطاء ، وعيش رتيب تعوده ، حتى صار جزءا من كيانه ؟ أما هذا الفرق فيتجلى لك بأجلى معانيه حين تقرأ قوله قبل الاحالة بعشرين يوما :

برزت فى سـحر البيـا
ن وشـاب فيـه مفـرقى
وقضيت عمـرى فى البـلا
غـة سـابقا لم ألحـق
والآن أذن للرحيـ
ـل مؤذن لم يشـفق
عشرون يـوما قـد بقيـ
ن وبعـدها لا نلتـقى
فتبلغى يـا نفس بالـ
ـمفروض للمسـترزق
فـات الـكثير من الحيـا
ة وقـل منهـا مـا بقى

على أن الأمر لم يقف بهذا الرجـل الذى أطلقنـا عليه لقب « رجل المفارقات » عند هذا الحد ، بل نراه يفزع الى صـديقه حسين باشا رشدى رئيس الوزارة ، فيكتب اليه :

صاحب الدولة ياشـيخ الوزارة
حاجتى ان شـئت تقضى باشارة
نالهـا قبـلى ألوف لم أكن
دونهـم علمـا ولا أدنى مهـارة

ناهز الســـتين عمرى انمـــا
لم أزل جم القوى جم الجدارة
واذا لم يشـــك مثـــلى عـــلة
هل من الحـــكمة أن يلزم داره؟
ان تركى خـــدمة الأوطان مـــع
طول مامارست فى الدنيا خسارة
وحيـــاتى كلهـــا قضـــــيتها
تارة فى العـــدل والتعليم تارة
ليس عنـــدى ضيعة تكفـــل لى
رزق أولادى ولا عندى تجارة
ان أولادى عـــلى كثـــــرتهم
ليس فيهم بعد من يكسب بارة
أبقنى بضـــع ســـنين ريثمـــا
يقدر الأكبـــر أن يؤوى صغاره
أو الى أن ينتهى مـــا فى يـــدى
وهو ـــان تم ــ فخار للنظارة[1]

ولسنا ندرى أجاد هو فى هذه القصيدة ، أم يجرى فيها على مألوف عادته فى الدعابة ؟ أغلب الظن أنه الاحتمال الثـــانى ،

(1) يشير بقوله «مافى يدى» الى مسألة رسم المصحف التى سنتناولها بالبحث بعد هذا الفصل

فالأبيات التى يشير فيها الى فقد الضيعة والتجارة ، والى عجز أولاده عن كسب بارة هى بالفكاهة أشبه منها بأى شىء آخر ،وعلى أى حال ماكنا نحب أن يستقبل عهد التحرر من قيود الوظيفة هذا الاستقبال ، ولو كنت أدركته فى هذا اليوم لهنأته قائلا :

هنأت « حفنى » بانطلاقه	لما تحرر من وثاقه
من كان مثلك فالوظيـ	فة كالسلاسل حول ساقه
ناداك ميدان النشا	ط الحر من طول اشتياقه
ان قيل: أين جياده ؟	كنت المجلى فى سباقه

وقبل أن نختم هذا الفصل ينبغى الاشارة الى النقاط التالية:

١ ـ تقرر بعض المراجع أنه فووض فى منحه رتبة الباشوية عند الاحالة ، فاعتذر بكثرة تكاليفها .

٢ ـ يقرر المصدر نفسه أنه عرض عليه أن يكون رئيسا لتحرير المؤيد ، فاعتذر أيضا . وقد كان هذا فى نظرنا أليق به من الوظيفة التى يندب فراقها ، الا ان يكون رأى أنه لايستطيع أن يرضى ضميره الصحفى دون أن يصطدم بالعرش والمستعمر .

٣ ـ يقرر المصدر نفسه انه كان فى النية أن يسند اليه فى الأزهر منصب كبير تمهيدا لتعيينه شيخا له ، ولكن المنية عاجلت صاحب هذه الفكرة ، ويبدو أنه السلطان حسين .

حفني ورسم المصحف

لعلك لا تعرف أن قراء القرآن الكريم فى أى صقع على وجه الأرض مدينون لحفنى ناصف (١) بضبط المصحف الشريف ، ورسمه بالصورة التى هو عليها الآن ، ولهذا الموضوع قصة طويلة تبتدىء بكتابة عثمان بن عفان للمصحف ، وتنتهى بتجديد هذه الكتابة على يد حفنى بعد أن كاد ينطمس الرسم العثمانى ، وبعد أن كثرت فيه الأخطاء والتحريفات بتوالى طبعه على مر الأيام ، حتى خيف على أقدس كتاب عرفته الانسانية .

أما هذه القصة الطويلة فقد تولى حفنى بلورتها فى مقال ألم فيه بأطراف الموضوع ، وسرد فيه مبررات التمسك بالرسم العثمانى ، ودافع عنه ماوسعه الدفاع بكل ما أوتى من حجةواقناع وهذا المقال نشرته مجلة المقتطف فى عدد يولية سنة ١٩٣٣ أى بعد وفاة حفنى ناصف بنحو أربعة عشر عاما . وقد قدمت المجلة هذا المقال بما نصه :

---

(١) اختار حفنى لمساعدته فى هذا العمل الشيخين احمد الاسكندرانى ومصطفى العنانى .

« كانت وزارة المعارف قد عهدت الى المغفور له حفنى بك ناصف بتصحيح الأغلاط الاملائية التى وقعت فى رسم المصحف بتكرار طبعه ، فقام بمراجعة المصحف ، وابتدع قواعد خاصة بالاملاء الذى كتب به فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وقدصحح وفقا لهذه القواعد نحو مائتى غلطة املائية ، وطبع المصحف الجديد ، فجاء خاليا من الخطأ ، وقد وضع حفنى بك كتابا فى قواعد رسم المصحف ، ولكنه لم يطبع بعد ، وكتب له مقدمة شائقة ننشرها فيما يلى »

وكم كان بودنا أن نسجل هذا المقال بنصه ، غير أن ضرورة الايجاز تضطرنا الى تلخيصه :

١ ـــ بدأ حفنى مقاله بما ورد فى حديث عائشة وفاطمة رضى الله عنهما من أن جبريل كان يعارض النبى (١) صلى الله عليه وسلم القرآن فى كل سنة فى شهر رمضان مرة واحدة ، وفى السنة الأخيرة من حياته عارضه مرتين ، فأحس بدنو أجله . وبأن القرآن بعد العرضة الأخيرة كتبه زيد بن ثابت وأبى بن كعب وأبوالدرداء ومعاذ وغيرهم من كبار الصحابة ، فلما قبض الرسول ألحق الكاتبون مانزل أخيرا بما عندهم .

٢ ـــ لما ولى أبو بكر الخلافة قام بحرب المرتدين ومانعى الزكاة ، فاستحر القتل فى القراء ، حتى خيف على القرآن الضياع

---

(١) المعارضة : ان يقرا واحد ويقابل عليه الآخر »

فكلف أبو بكر زيد بن ثابت جمع القرآن من صدور الرجال، ومن الأضلاع والرقاع والعسب (١) ، حتى تم له جمعه وكتابته من جديد كتابة فيها اشارات الى أوجه القراءة التى أذن بها الرسول ، وأقرأ بها وفود القبائل : من فك وادغام وامالة وتفخيم واشمام ومد وقصر وتغليظ وترقيق : طبقا للحديث الشريف : « ان هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرءوا ماتيسر منه » قيل: انها لغات قريش وكنانة وأسد وهذيل وبنى تميم وضبة وقيس ، وهم الذين انتهت اليهم الفصاحة ، وسلمت لغاتهم من الدخل وبذلك تم جمع القرآن كله على هذا الوجه فى مصحف واحد ظل وديعة عند أبى بكر ، حتى مات ، فانتقل الى عمر ، ثم أودع عند حفصة ابنته بعد وفاته .

٣ ــ فى عهد عثمان تفشى الاختلاف فى قراءة القرآن ، حتى كان بعضهم يقول للآخر :

« قراءتى خير من قراءتك » فيجيبه الآخر بمثل ذلك ، ولما نما هذا الى عثمان وجد أن الأمر بلغ حدا لايحسن السكوت عليه ، فبعث من فوره الى حفصة فى طلب مالديها من المصحف ، ثم عهد بها من جديد الى زيد بن ثابت وسعيد بن العاص وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن هشام وطلب اليهم استنساخ أربع نسخ من المصحف ، فأرسل واحدا الى

---

(١) العسب : قحوف النخل

الكوفة ، وثانيا الى البصرة ، وثالثا الى الشام ، وأمسك الرابع عنده ، ثم كتب بعد ذلك نقلا عن النسخة التى لديه نسخا أخرى بعث بها الى مكة والمدينة واليمن والبحرين . وأمر عثمان باحراق ماعدا ذلك من الصحف القديمة اكتفاء بما استنسخه من المصاحف ويظهر أن مصاحف عثمان كانت خالية من الاشارات الدالة علــى القراءات كما يظهر أن بين بعضها وبعض شــيئا من الاختــلاف باختلاف لغات الأقاليم ، غير أن هذا الاختلاف لايمس الجوهر ، وانما يتصل بما سمح به من تعدد القراءات ، على أن عثمان لــم يكتف بارسال المصاحف الى الأقاليم ، بل كان يشفع كل مصحف بقـــارىء .

٤ ــ كانت مصاحف عثمان خالية من النقط والشكل ، وأول من وضع الشكل أبو الأسود الدؤلى ، وأول من وضع النقط عاصم الليثى بأمر من الحجاج الثقفى ، ثم أحدث الخليل بن أحمد تعديلا فى شكل الشكل يزيده وضوحا .

٥ ــ استطرد حفنى من سرد هذه الأدوار الى أن المحافظة على الرسم العثمانى أمر واجب اتباعه صيانة للقرآن الكريم من العبث واحتج برأى مالك فى ذلك حينما سئل : هل يجوز كتابة المصحف على ماأحدثه الناس من الهجاء ؟ فقال : «الا الكتبة الأولى » ثم أورد بعد ذلك مايفيد أن سائر الأئمة يتفقون مع مالك فى الرأى وعرض لمن خالفوا هذا الرأى ، فسفه رأى ابن خلدون فى جواز كتابة المصحف بالاملاء الحديث ، كما سفه رأى فريق من علماء

الأزهر يذهبون مذهب ابن خلدون ، وختم مقاله بقوله : « ولا يبعد اذا سلم كلام هؤلاء العلماء أن يذهب غيرهم الى استحسان كتب المصحف بالحروف اللاتينية ، وآخرون الى اختصاره ، وآخرون الى ارجاعه الى اللغة العامية ليعم نفعه ، الى غير ذلك من الرقاعات والمخرقة « فماذا بعد الحق الا الضلال » .

الى هنا ينتهى موجز مقال حفنى الذى أشارت المقتطف الى أنه مقدمة كتاب وضعه فى هذا الصدد . ومن ذلك يفهم أن الأمر لم يكن من السهولة بمكان ، وما ظنك بهذه القواعد : قواعد الرسم العثمانى التى يقتضى استنباطها تأليف كتاب قائم بذاته ؟ ولقد استغرق هذا العمل من حفنى زهاء سبع سنوات . واذا عرفنا هذا كله لانكون مبالغين اذا قلنا : ان هذا العمل من جانب حفنى يمت بصلة النسب الى عمل « فرانسوا شامبليون » فى اكتشاف الكتابة الهيروغليفية من النقوش التى وجدها على حجر رشيد . ويبدو لنا أن ثمة علاقة بين هذا العمل الدينى المجيد الذى قام به حفنى ناصف وما سبقت الاشارة اليه من ترشيحه شيخا للأزهر .

على أن لنا تعقيبات على ماورد فى مقال حفنى ناصف وماضمنه اياه من آرائه فى هذا الموضوع ، فهو يرى أن كتابة المصحف بالاملاء الحديث تجر الى الدعوة الى كتابته بالحروف اللاتينية أو الى اختصاره ، أو الى ارجاعه الى اللغة العامية ، ونحن نقول له : ان هذا قياس مع الفارق ، فاختصار القرآن مسخ وتشويه

ونطقه بالعامية أبلغ فى باب المسخ والتشويه ، وكلاهما يتعلق بجوهر القرآن . أما كتابة المصحف بالاملاء الحديث فانما تتعلق بالشكل لا بالجوهر : أعنى أنها لاتحدث تغييرا فى سلامة القراءة بل ربما كانت أدعى الى هذه السلامة . ان قداسة القرآن تنصب على كلامه لاعلى رسم حروفه ، فالأول من صنع الله ، والثانى من صنع البشر ، واذا صح ذلك فما أخال رسم القرآن بالحروف اللاتينية يجد من المنصفين كبير حرج ، بل لهم أن يقولوا بوجوبه لابجوازه فقط اذا لاحظنا أن القرآن أس الاسلام ، وأن الاسلام دين البرية كلها ، لادين العرب وحدهم . ومادمنا مكلفين أن نبث الدعوة الاسلامية فى مختلف الأمم فعلينا أن نكتب لهم ماندعو اليه بالخط الذى يستطيعون قراءته به ، أما تكليف العالم أجمع أن يتعلم الحروف العربية فهو تكليف بالمحال .

وأرى هذا الحديث يجرنا من حيث نريد أولا نريد الى الحديث عن ترجمة القرآن : فان ما قلناه عن كتابته بالحروف اللاتينية ينطبق على ترجمته الى غير العربية ، ولست أدرى لم يجوز لنا تفسير القرآن ولا تجوز لنا ترجمته ؟ ان التفسير استبدال كلام بآخر يؤدى معناه ، والترجمة لاتخرج عن ذلك ، وكلاهما فيه نقل العبارة الربانية الى العبارة الانسانية ..

وعلى أى حال فمجال القول فى هذا الموضوع ذو سعة ، وهو موضع خلاف مستحر بين طوائف العلماء أنفسهم ، وسواء رضينا أو أبينا فان القرآن ، أو سورا منه على الأقل تكتب بالحروف

اللاتينية ، وتترجم الى غير العربية ، أفما كان الأجدر بنا أن نكون ذلك تحت اشرافنا بدل أن يتولاه من لا يوثق به ، ولا يؤنس عليه؟ أخشى أن نكون بالنسبة لهذا الموضوع كالنعامة التى تغمض عينها عن الخطر عندما تراه .

وفى المقال نقطة تستدعى أن نقف عندها قليلا ، ونعنى بها ماورد فيه من أن المصحف العثمانى الأصيل كان خاليا من الشكل والاعجام الى أن جاء أبو الأسود الدؤلى وغيره ، فتلافوا هذا النقص ، وقد كان ذلك كله قبل عهد الأئمة الأربعة ، فجدير بنا أن نتساءل عن رأى هؤلاء الأئمة ، وعلى رأسهم مالك صاحب « الكتبة الأولى » فى هذا العمل ، فان حظروه فلماذا لم يستنكروه؟ وان أباحوه فلماذا يباح لغيرنا مالا يباح لنا؟.

ونظرا لأهمية الموضوع رجعنا الى ابن خلدون ، لنتعرف رأيه الذى أشار اليه حفنى فى مقاله اشارة خاطفة ، فوجدناه يقول : « كان الخط العربى لأول الاسلام غير بالغ الى الغاية فى الاحكام والاتقان والاجادة ، ولا الى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش ، وبعدهم عن الصنائع . وانظر ماوقع لأجل ذلك فى رسم المصحف ، حيث رسمه الصحابة بخطوطهم ، وكانت غير محكمة فى الاجادة ، فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته رسوم صناعة الخط عند أهلها . ثم اقتفى التابعون من السلف رسومهم فيها تبركا بما رسمه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وخير الخلق من بعده ، المتلقون لوحيه من كتاب الله تعالى

كما يقتفى لهذا العهد خط ولى أو عالم تبركا ، ويقع رسمه خطأ أو صوابا ، واين نسبة ذلك من الصحابة رضوان الله عليهم فيما كتبوه ؟ فاتبع ذلك ، وأثبت رسما ، ونبه علماء الرسم الى مواضعه ولا تلتفتن فى ذلك الى مايزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط ، وأن مايتخيل من مخالفة خطوطهم لأصول الرسم ليس كما يتخيل ، بل لكلها وجه .. الخ »

على أن ابن خلدون قد أسهب فى هذا الموضوع ، وقد أشار — فى تهكم — الى تلك العلل التى يعللون بها مخالفة الرسم العثمانى لأصول الرسم : من أمثال قولهم : ان زيادة «لا» فى « لا أذبحنه » اشارة الى أن الذبح لم يحدث ، وقولهم : ان زيادة الياء فى « والسماء بنيناها بأييد» للدلالة على كمال القدرة الربانية .

ومن عجيب ما اطلعت عليه فى تلك التعليلات قول بعضهم ان هذه المخالفة تعجز أهل الكتاب عن قراءة القرآن على وجهه الصحيح » ونحن نقول : ان هذا الكلام واضح البطلان لسببين (الأول) أن القرآن نفسه يخاطب أهل الكتاب فى غير موطن «قل يأهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم .. الخ » فكيف يخاطبهم بكلام لا يتمكنون من قراءته عند كتابته ؟ (والثانى) أن هذه المخالفة لاتعجز أهل الكتاب وحدهم عن قراءة القرآن ، بل تعجز أوسع المسلمين ثقافة عن قراءته مالم يكن وراءه مقرىء كالشيخ محمود الحصرى يهديه الى الصواب ، وكيف يستطيع

غير رجال الدين من الأطباء والمهندسين أن يقرءوا القرآن قراءة سليمة وفيه مثل هذا الخلاف ؟

الكلمة بالرسم العثمانى	الكلمة بالرسم الحديث
يبدؤا	يبدأ
يصلح	ياصالح
لشاىء	لشىء
الئن	الآن
أنبؤا	أنباء
العلمؤا	العلماء

وبعد ، فنحن نحب قيصر ، ولكن الحق أحب الينا من قيصر، فليسمح لنا حفنى أن نخالفه فى هذا الرأى ، وليس معنى هـذا أننا ننقص من قيمة عمله ، ومابذله فيه من مجهود جبار ، وحسبه أنه كلف عملا ، فأتمه على خير وجه

ولقد استغرق هذا العمل من حفنى زهاء سبع سنوات ،وكان ختام أعماله المجيدة فى خدمة الاسلام واللغة ، وتشاء العنـــاية السماوية أن يصحح آخر « بروفة » لرسم المصحف وهو عـلى فراش الموت ، قبل أن يلفظ نفسه الأخير بساعات : أعنى قبل يوم ٢٥ فبراير سنة ١٩١٩ ، وهو تاريخ انتقاله الى العالم العلوى ،رحمه الله رحمـــة واســعة .

شعر حفني

١ ـ كلمة عامة

كان للشعر فى عهد حفنى دولة بعد أن دالت دولته فى أعقاب الدولة العباسية . والحقيقة أن دولة الشعر لم تدل فى عصر من العصور ، وانما تقوى حينا وتضعف آخر : شأنها فى ذلك شأن الدولة السياسية ، فالشعر شيء يتصل بالأحاسيس ، وليس ثمة أمة من الأمم ــ أيا كان مبلغها من الحضارة ــ الا وهى تعبر عن انفعالاتها بشعر من أى نوع كان . ومن هنا يذهب مؤرخو الأدب الى أن الشعر أسبق ظهورا من النثر ، لأن الأول يعتمد على العاطفة ، والثانى يعتمد على العقل ، والعاطفة أسبق فى الانسان الأول من العقل ، وقس على ذلك ماتراه فى الطفل ، فهو قبل أن يعقل يحس بألم الجوع مثلا ، فيعبر عنه بالبكاء ، ويحس بالسرور ، فيعبر عنه بالضحك . ومن هنا تسنى للشاعر أن يقول :

اذا لم تقم للشعر فى الشعب دولة

تيقنت أن الشعب ماتت مشاعره

على أن مصر فى أشد لياليها حلكة لم تخل من شعراء مبرزين: من أمثال عمارة اليمنى فى عهد الأيوبين ، والبهـاء زهير فى عهد المماليك ، ومحمود صفوت الساعاتى قبيل ظهور البارودى مباشرة الى غير هؤلاء ممن لمعت أسماؤهم فى عهد عصور الانحطاط الأدبى

ويكاد ينعقد الاجماع على أن باعث النهضـة الشعرية من مرقدها فى العصر الحديث هو محمود سامى البارودى ، وبعـده كان لهذه النهضة أبطال — على اختلاف درجاتهم فى البطـولة — من أمثال حفنى ناصف واسماعيل صبرى وعبـد الله فـكرى ومحمد عبد المطلب والسيد توفيق البكرى والشيخ على الليثى ، ثم أحمد شوقى وحافظ ابراهيم .

هؤلاء وأضرابهم هم دعائم النهضة الشعرية الحديثة : ويمكن القول بصفة عامة بأنهم كانوا متعاصرين ، أدرك أحدثهم ميـلادا أسبقهم وفاة ، وعاش معه فترة غير قليلة من الزمان ، وكان بين هؤلاء بعضهم وبعض مطارحات ومساجلات تتناقلها الأندية الأدبية والصحف المحلية ، وتغذيها الحركات السياسية ، والثورة العرابية بصفة خاصة ، ولقد بلغ من ارتباط هذه الثورة بالشعر الحديث أن جعلها الأستاذ العقاد مبدأ تاريخ نهضته حيث يقول ما نصه : « ظهرت طلائع النهضة الشعرية فى مصر منذ ظهرت فيها طـلائع الثورة العرابية » وقد نخالفه فى ذلك بعض الشىء ، فالثـورة العرابية لم تقم الا فى سنة ١٨٨٢ وكان شاعر كالبارودى اذ ذاك يملأ الأيك سجعا وتغريدا يردد صداهما الخافقان . اللهم الا اذا

كان العقاد يربد بطلائع الثورة ماسبقها من عهد التذمر ، والتمرد على حكم الأسرة العلوية .

ويحدد لنا الشيخ الاسكندرى مركز حفنى ناصف بين شعراء هذه المدرسة ، فيقول : « أما شعره فلم ينكر الأدباء عليه أنه أبو الطبقة التى ظهرت بعد طبقة البارودى وعبد الله باشا فكرى ، وكل من نبغ بعد ممن انتهت اليهم الرياسة فى الشعر فعلبه تعلم ، أوله قلد ، حتى أصبحوا شعراء هذا الزمان . . . »

والواقع أن معاصرة حفنى للبارودى وعلو كعب البارودى فى الشعر جعلت حفنى ناصف يولع بتقليده ، فلا يسقط دون مطاره واذا أردت شاهدا على ذلك فاقرأ هذه القصيدة التى أنشأها حفنى فى الفخر ، والفخر ـ كما نعلم ـ من أبرز الملامح الشخصية للبارودى . قال حفنى :

تحلل السحر أقوالى وتعقده
وتنظم الدر أفكارى وتنثره
اذا دهى الخطب واستدعى الخطاب فلا
يدعو سواى لفصل القول منبره
ولى يراع كصدر الرمح هزته
تبشر السكون أحيانا وتنذره
له مواقع تندك العقول لها
كأنما نفثات السحر أسطره

والأمر طـــوع يدى هـــذا أقـدمه
الى المعـــالى وذا حينـــا أؤخـره

حتى كـأنى مبـــليمان الزمان فـــلا
يرد أمـر الى من شــئت أصـــدره

وكما كان حفنى يقلد البارودى ، كان البارودى نفسه يقلد أبا نواس والشريف الرضى وغيرهما، ونستطيع أن نقول بوجه عام: ان الطابع الغالب على الشعر فى هذه الحقبة هو طابع التقليد ،وان شيب أحيانا ببعض مظاهر التجديد التى اقتضتها حياة الحضارة الجديدة وما استتبعته من خوض غمار العـلوم والآداب ، وانك لتجد مظهرا من مظاهر هذا التجديد فى قول حفنى نفسه .

يستحضر الجســم المـــراد بحـــكمة
وينـــال من أعمـــاله المطـــلوبا

لكن اذا مس الجهـــاز بقـــــوة
أذرى الوقـــود وكســـر الانبـوبا

ففى البيتين صورة كيميائى فى معمل يزاول احدى تجـــاربه فى غير روية ، فتندلع ألسنة اللهيب ، ويطير الجهاز شعاعا ، وهذا ما لم يكن يخطر للقدماء على بال .

وشعر حفنى يمثل حياته الشخصية أصدق تمثيل ، وما كذلك شعر المقلدين المغرقين فى التقليد ، فأنت تستطيع أن تستنبط من شعره حياته ، ونوع ثقافته ، وما جبل عليه من خلال ، وما أفاده

من تجارب فى رحلاته الى أرجـاء الأرض ، وخذ مثـلا لذلك الأبيات التالية :

انبـــــــراس عزتهــــا يضى	ء دمى ولم تمسســـــــه نار
رويت المجـد عن أصل وجد	فما فى نص مجـدك عن فلان
جنيت الورد من خديه لـكن	له لحـظ يؤدب كل جـان

الى غير ذلك من الأبيات التى تنضح عليها ملامحه الشخصية ففى البيت الأول تجد مايشير الى ثقافته القرآنية ، وفى الثـانى مايشير الى ثقـافته كمحـدث ، وفى الثالث ما يشير الى عمله فى القضاء من تأديب الجناة ، وهلم جرا .

وكما كان شعر حفنى يمثل حياته أصـدق تمثيل كذلك كان يمثل عصره أصدق تمثيل ، فأنت تستطيع أن تؤرخ — الى حـد كبير — لعصره من شعره ، فتعرف من الثانى مبلغ ما كان عليـه الأول من حضارة وثقافة ، كما تعرف لون المعيشة الذى تلون به ، ونوع الحكم الذى كان يسوده ، وتكاد تسمع ما فاض به من أنين الآلام ودبيب الآمال .

وثمة ملحوظة هامة لاحظناها عند استقرائنا لشعر حفنى، وهى أن هذا الشعر يكاد يجمع بين النقيضين : التحليق والاسفاف ، وعلة ذلك أنه لم يتول جمع ديوانه بنفسه . والذى لاشك فيه أنه لو فعل ذاك فى حياته لأعمل قلم الشـطب فى غير قليل من شـعره الذى أشرنا اليه سابقا فى القصيدة التى مطلعها .

بشرى فقـــد ختـم الـــكتاب
وبـــدا الهنـــاء المســـتطاب

ويظهر أن هذه الملحوظة لم تفت جـامع الديوان (ولـده الأستاذ مجد الدين ناصف) فهو يذكر أنه كان مترددا بين طريقتى الاختيار ، وابقاء ما كان على ما كان ، وفى الأولى انصاف للشاعر، وفى الثانية انصاف لتاريخ الأدب ، على أنه أخذ بالمبـدأ الثانى نزولا على اشارة الدكتور طه حسين . ويبدو جليا أن ما أشرنا اليه من هذا الشعر الأجوف انما كان يقوله غالبا على جهة الارتجال سدا لحاجات وقتية تدفعه اليها الظروف دفعا ، على أن الطائر الذى يستطيع التحليق يستطيع الاســـفاف ، أما الذى طبيعته الاسفاف فلا يستطيع التحليق فى أجواز الفضاء ، وقديما قـال المتنبى :

ودهر ناســـه ناس صـــغار
وان كانت لهم جثث ضـــخام
ومـا أنا منهمو بالعيش فيهـم
ولكن معـدن الذهب الرغـام

وهما بيتان متجاوران : أولهما يلتصـق بالتراب ، وثانيهما يناطح السحاب .

٢ ـ خصائص شعره :

هنالك شاعر مصرى لا أكاد أقرأ شيئا لحفنى الا ذكرنى به ؛

هذا الشاعر هو بهاء الدين زهير . ان أحد النقاد بصرا بالشعر لا يكاد يفرق بين كثير من شعر حفنى وشعر البهاء زهير اذا لم يكن عرف نسبة احدهما الى صاحبه ، ولم يكن فى الشعر نفسه ما ينم على أحد عصريهما ، فالشاعران متشابهان .. على اختلاف ما بينهما من ثقافة ، وما بين عصريهما من بضعة قرون : تجمع بينهما السلاسة ، وخفة الروح التى عرف بها المصريون ، وشيوع الدعابة فى فنون شعريهما ، كما يجمع بينهما التلاعب بالألفاظ وتوشية الشعر بألوان المحسنات البديعية ، وان كان فى شعر حفنى عمق ليس فى شعر سابقه ، وكلا الشعرين مما يطلق عليه اسم السهل الممتنع : يظنه من يحاكيه سهل المنال ، ودون الوصول اليه أهوال . وفيما يلى نتناول بعض خصائص شعر حفنى على جهة التمثيل لا على جهة الاستيعاب .

أ ـ السهولة : لا تكاد تجد فى شعر حفنى تعقيدا أو التواء يحتاج معهما الى شرح أو تعليق الا فيما ندر . وهذا هو الأصل فى الشعر ، بل فى الكلام كله ؛ فان البلاغة هى البيان ، والبيان معناه الوضوح ، ومن هنا قال القدماء : « خير الكلام ما سبقت معانيه الى الأذهان ألفاظه الى الآذان » ومن العجيب أن روعة الشعر تقترن دائما بوضوحه ، على حين لا تجد وراء التعقيد غالبا الا التفاهة والمعانى الجوفاء ، اقرأ قول المتنبى :

شـــيم الليـــالى أن تشكك ناقتى
صدرى بها أفضى أم الدهنـــاء ؟ (١)
فتبيت تســـئد مســـئدا فى نيهـــا
اســـآدها فى المهمـــة الانضـــاء

فليس وراء هذين البيتين اللذين يديران الرءوس سوى معنى رخيص : هو أن ناقته تسرع فى الســـير ، والهـــزال يسرع فى شحمها اسراعها هى فى الفلوات .

ولسنا نسوق اليك شواهد على سهولة شعر حفنى وسلاسته فكل شعره شواهد على ذلك .

ب : الجناس : كاملا كان أو ناقصا ، فقد أكثـــر حفنى من اصطناعه ، كما يتجلى ذلك فى الأبيات التالية :

١ ــ ريب المنون وصرف الدهرأعيانى
والدهـــــر قرح يوم البين أعيـــانى

٢ ــ يستحيل الفـــؤاد أن يستحيلا
فاهجرى ان أردت هجـــرا طـــويلا

٣ ــ يا ممرضا مهج الورى بجفـــونه
انى لأعلم فى الشـــفاه شـــفاها (٢)

---

(١) تسئد : تسرع ، نيها : شحمها ، الانضاء : الهزال فاعل تسئد ضمير الناقة ، والانضاء فاعل مسئدا .

(٢) شفاها الثانية : مقصور « شفاءها » .

جـ ــ الاكثار من التورية ، كما يتجـلى ذلك فى الأبيـات التـــالية :

١ ــ جنيت الورد من خديه لـــكن
له لحـــظ يؤدب كل جـــانٍ

٢ ــ والنوم ســـلطان مراســـيمه
تتـــــــلى على الأعـين والرأس

٣ ــ يا دهر حســبك لا تروعنى ولا
تتعد حدك ان لى ســـــــلطانا (١)

د ــ محسنات بديعيــة أخرى : كحسن التعـليل فى قوله يخاطب الشمس :

اذا سـترت بكم السحب وجهـك عن
عيونـنـــا بعض أيام فمـــا الضرر ؟

ألست شرقيـــة والشـــأن عندكمو
أن المـــلاح ذوات الحسن تستتر ؟

وكالقوافى الداخلية فى قوله :

ملبى النـــدارب النـــدى معدن الهدى
مذيق العــدا طعم الردى والتبـــدد

وكالمقابلة فى قوله يشكو عمله فى تعليم الخرس والعميان:

مولاى دعـــــــوة ثاو بين ذى بصر
بغـــير سمع وذى ســـمع بلا بصر

(١) المعنى البعيد هنا « سلطان » صديق حفنى .

هـ - تضمين الآيات القرآنية والأمثال العربية : كما يتجلى في قوله :

١ - اذا هالك الأمر من بأسه
وضقت ولم تستطع حمله

فلذ بالتقى فهو باب الخلاص
« ومن يتق الله يجعل له »

٢ - يزدحم الناس على بابه
« والمورد العذب كثير الزحام »

و - كثرة الاشارة الى المصطلحات العلمية : كما يتجلى في قوله :

١ - قلب تتيم فى ظبى لواحظه
فيها فتور وتضعيف واعلال

٢ - كم ذا أكاتبكم ولم أر مرة
منكم مكاتبة فمن لى منجدا ؟

هذا وحقك للقياس مخالف
أرأيت عبدا قط كاتب سيدا ؟

ز - كثرة التشبيهات المبتكرة أو الشبيهة بالمبتكرة : كما يتجلى ذلك فيما يلى :

١ جنبونى ذكر العيون فقلبى
في ارتعاش من فعلها وارتعاد

فهى كالكهرباء تومى بلحظ
فتدق الأجراس فى الأكباد

٢ كمدين هوى اليه غريم
أو بخيل حلت به ضيفان (١)

أو سكارى تجهموا ذا وقار
أو وقور بداله سكران

٣ .. يا قلب ويحك ان ليثا طرفها
أو ما تراه ساكنا فى غاب ؟

٤ نم بك الجبين دجى فأرسل
على شمس الجبين ظلام شعر

ح ـ نبوع روح الدعابة فى شعره : والواقع أن شعر حفنى على اختلاف أغراضه لا يكاد يخلو من الدعابة ، حتى ما كان منه فى الرثاء ، ألست تجد هذه الروح وهو يرثى الشيخ حمزة فتح الله متجلية فى قوله :

بكسو المعانى ان عنت له كلما
كأنما ادخر الألفاظ فى علب

---

(١) الشبه فى هذين البيتين هو السماء عند الغيم .

ففى هذه الصورة ما يذكر بعلب الثقاب واستخراج أعوادها لاشعال السجائر ، وهى صورة تبعث على ابتسام الشفتين، لاعلى اراقة ماء العينين ومن ذلك قوله فى رثاء آخر :

ويد الردى سرقتــــك ليــــلا ليتهم
حـــــدوا بقطع يديهمــــو السراقا

ففى هذا البيت ما يصور الفقيد بصورة قطعة مصاغ ثمينــة تسلل اليها الموت ليلا كما يتسلل اللصوص الى المنــازل ، وهى صورة أشبه بسابقتها .

ومن دعاباته قوله فى تقريظ كتاب جغرافية :

هيهـــات يوجد فى الوجود نظــيره
أو أن يضـــاهيه ســـواه ولو نطق

أو أن يجىء فتى بمثـــل صـــفاته
لو كان بحـــرا فى البــلاغة وانفلق

هـــذا هـــو القـــول الحقيقى الذى
يعنى به وســـواه حبـــر فى ورق

ومن دعاباته البارعة القائمة على التـــورية قوله فى ســـليم سركيس المسيحى عنــد عودته من زيارة قام بها الى الحجاز فى موسم الحج :

عليـك سـلام الله ان كنت مؤمناً
وان كنت زنديقـا سـحبت كلامى

لقـد كان سركيس بمـكة محرما
وطاف ببيت فى البقـيع حرام ــ ى

ومن ذلك قوله فى معنى أن الكرم عمل لا كلام :

بربك هل ترى فى الـكسب عارا
وكيف وفى التـكسب طيب نفسى ؟

فلا تكثـر بشـكرك لى فخـير
لدى دريهـم من ألف « مرسى »

ومن دعاباته قوله فى اثنين من حكام الانجليز اسم احدهما « جبس » واسم الثانى « جير » :

لمصـر بئس المصـبـين
العيش فيهـا مـريـر

والقـوم طـين لهـذا
قـد سـاد « جبس » و « جـير »

ومن ذلك قوله فى الحمى وماتحدثه من حرارة فى الأجسام

أذابت لظى الحمى حشـاى وأوهنت
قواى ولكن كم لهـا من يد عنـدى

تنـوب عن « الـكينا » بمر مذاقها
وتغنى عن « الكنياك » فى زمن البرد

وبعد ، فدعابات حفنى لا تجزىء فيها عجالة كهذه ، وانما يلتمسها من يريدها فى ديوانه .

٣ ـ ما لغيره فى شعره :

وليس يضير حفنى ناصف أن يأخذ من غيره بعض معانيه ، ولا نقول . « يسرق » فاننا نجل القاضى الذى يعاقب على السرقة عن أن ننسبها اليه ، على أن السرقة الأدبية غير السرقة المادية ، فاذا كان حد الثانية قطع اليد فلا حد فى الأولى ، ولا جناح على مرتكبها ؛ فالشعراء من قديم يعيش بعضهم عالة على بعض، وقد أحصى بعض النقاد ما لأبى تمام ـ وهو من هو فى دولة الشعر ـ من معان مبتكرة فلم تبلغ العشرين فيما خلفه لنا من آلاف الأبيات ، وقديما قال الشاعر : « هل غادر الشعراء من متردم » وقال غيره :

ما أرانا نقول الا معارا
أو معادا من لفظنا مكرورا

وكتب الأدب حافلة بالكلام عن السرقات الشعرية ، وهم يقسمونها أقساما ، منها المستحسن ، ومنها المستهجن ، وينسبون السرقة الى الشاعر اذا نظر فى معناه الى غيره ولو من بعيد ، وحسبك دليلا على ذلك قولهم ان ابن الرومى سرق البيتين الآتيين :

يقتـــــر عيسى على نفســـــــه
وليس بيـــــاق ولا خـــالد
فلو يســـــتطيع لتقتـــــيره
تنفس من منخـــــــر واحـــد

من رجل بخيل فقأ احدى عينيه ، وقال : ان النظر بهمـا معا ضرب من الاسراف . وانما قدمت هذه المقدمة حتى لا تنتقص من فن شاعرنا اذا وقفت على بعض مآخذه ، وهذا بعضها فمن ذلك قوله فى رثاء عبد الله باشا فكرى :

لو عاش لم يطرق الأسماع ذكرهمـو
فى طلعة الشمس من ذا يبصر الشهبا ؟

نظر فيه الى قول النابغة الذبيانى :

فانك شـــمس والمـــلوك كواكب
اذا طلعت لم يبـــــد منهن كوكب

ومن ذلك قوله فى فاتنة تسمى « كوثر » :

صـــــورتها تنطـــق أن الذى
صـــورها فى صـــنعه متقـن
كوثر نور الله فى أرضـــــــه
فكل من أبصـــــــرها مؤمن

نظر فيه الى قول أبى نواس :

تأمل فوق ظهـــــــر الأرض وانظر
الى آثار ما صـــــنع المليــــــكَ

عيـــون من لجـــين شاخصـــات
بألحـــاظ هى الذهب الســـبيك

على قضب الزبرجـــد شـــاهدات
بأن الله ليس له شـــــــــريك

ومن ذلك قوله يتغزل :

أتكتم عشــــــقها كى لا يقـــولوا
شـــج والدمع طفف منـــك كيـــلا ؟

وتخفى الوجـــد وهـــو عليـــك باد
تســـيل لفرطـــه الأجفـــان ســـيلا ؟

نظر فيه الى قول الشاعر :

لا تخف ما فعلت بك الأشـــــواقْ
واشرح هـــــواك فكلنـــا عشـــاقْ

قد كان يخفى الحب لولا دمعك الـــ
ـــجارى ولولا قلبـــك الخفـــاق

ومن ذلك قوله فى هذه القصيدة نفسها :

وهل يلد الهــوى الا هــوانا ؟
وهل يبقى الهــوى للصب حولا ؟

نظر فيه الى قول الشاعر :

ان الهــوان هو الهــوى قلب اسمه
فاذا هــويت فقـــد لقيت هوانا

ومن ذلك قوله :

هذى الفنــون التى لم تجننى ثمــرا
مالى أذود الأذى عن عودها الخضر ؟

نظر فيه الى قول أبى نواس :

لا أذود الطـــير عن شـــجر
قد بلوت المــر من ثمـــره

ومن ذلك قوله فى قصيدة مدح :

يعطى النــوال وثغــره متبســـم
والسحب لا تعطى بغـــير رعــود

أخذه من قول الشاعر :

من قاس جــــدواك يومـــا
بالســـحب أخطــــأ مدحك

السحب تعطى وتبكى
وأنت تعطى وتضحك

ومن ذلك قوله فى قصيدة فخر :

ولا أرى فى يسير العيش لى أربا
ان كان يقنع بعض القوم ايسره

أخذه من قول امرىء القيس :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة
كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكننى أسعى لمجد مؤثل
وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

ومن ذلك قوله فى القصيدة نفسها :

وكم سرى لى ما بين الورى أدب
سناه يلحظه الأعمى وينظره
والصم تصغى لقولى حين أنطقه
وتفهم القصد منه حين أذكره

أخذه من قول المتنبى :

أنا الذى نظر الأعمى الى أدبى
وأسمعت كلماتى من به صمم

غير أن نسبة هذا المعنى الى المتنبى لا تخلو من غلو ظاهر ، أما نسبته الى حفنى فليس فيها كثير من الغلو اذا لاحظنا أن الصم والعميان كانوا يفهمون أدبه فهما حقيقيا لا مجازيا . ومن ذلك قوله :

خذ من لواحظها الحذار
لا يخدعنك الانكسار
فلها على سلب الحشا
مع ضعفها أى اقتدار

أخذه من قول جرير :

ان العيون التى فى طرفها حور
قتلننا ثم لا يحيين قتلانا
يصرعن ذا اللب حتى لا حراك به
وهن أضعف خلق الله انسانا

ومنه قوله فى قصيدة مدح :

فـ .. جمعت فيه صفات الورى
وملكته المكرمات الزمام

أخذه من قول أبى نواس :

ليس على الله بمستنكر
أن يجمع العالم فى واحد

ومن ذلك قوله فى رثاء الشيخ محمد عبده :

السكون عن مسعاك ضاق نطاقه
فعلام تتخذ المقابر دارا ؟

أخذه من قول الشاعر فى رثاء معن بن زائدة :

ويا قبر معن كيف واريت جوده
وقد كان منه البر والبحر مترعا ؟

ويطول بنا الحديث لو استقصينا هذا الموضوع ، فقد كان حفنى راوية كثير المحفوظ ، فكان من الطبيعى أن يستغل رصيده من ذلك على هذا المنوال قصدا أو عفوا .

٤ ــ فنون شعره :

يشتمل ديوان حفنى على نحو ما قسمه اليه جامعه على الأبواب التالية (١) اجتماعيات ووطنيات (٢) رثاء (٣) غزل (٤) تهنئة وشكر (٥) مديح (٦) مراسلات (٧) مناسبات (٨) تقاريظ (٩) بديعيات (١٠) سوانح سفر (١١) تاريخ (١٢) تأهيل (١٣) دعابات (١٤) ثم أتبع شعره بطائفة من أزجاله .

وكم كان بودنا أن تتناول كل فن من هذه الفنون بالبحث والتحليل ، لولا أن تتشعب بنا طرق القول ، فلا بد من الاجتزاء بالبعض ، ومالايدرك كله لايترك كله .

ا ـ الغزل : أما غزل حفني فهو من أخصب شعره،وتستطيع أن تقسم هذا الغزل الى قسمين ـ أحدهما ـ صناعي والآخر ـ طبيعي . أما الأول فهو الغزل المصطنع الذى كان يصدر به قصائده على طريقة الشعراء من عهد امرىء القيس الى عهد شوقي وحافظ . على رغم من تمرد شاعر كالمتنبى أحيانا على هذه الطريقة اذ يقول :

اذا كان مدح فالنسيب المقدم أكل فصيح قال شعرا متيم ؟

وأما الغزل الطبيعي فيندرج تحته معظم ما أنشأه في هذا الباب ، وليس معنى ذلك أنه شغف بحبيبة معينة ملكت عليه لبه كما هو الشأن فى بعض شعراء الغزل من أمثال قيس بن الملوح . وقيس بن ذريح وجميل وكثير وتوبة وغيرهم،وانما نقصدبطبيعية هذا الغزل أنه كان صادرا عن انفعال منشؤه تأثير الجمال على نفسه أيا كان هذا الجميل الذى يطبيه . نعم انه يصرح أحيانا باسم ليلى وهند وغير ليلى وهند ، ولكن هذه الأسماء لامدلول لها ، وانما كنى بها عمن يحب من ربات الحجال ، وربما تجاوز غرامه ربات الحجال الى بعض ذوى القوام الفتان من الغلمان ، ومالنا نخجل من تسجيل هذه الظاهرة ؟ على حين يصرح هو بها تصريحا لاتلميح فيه حين يقول :

أهوى العذارى وأرباب العذار ومن
فى شكله عن صفات الحسن مثقال

وهذا البيت يبين لنا مذهبه فى الحب ، فنفسه تتبع كل جميل ذكرا كان أو أنثى ، قريبا أو بعيدا . بل ان هنـــاك ظاهرة تلفت النظر فى غزل حفنى ، ونعنى بها أنه كان ضعيف الوطنية ، لا فى عواطفه السياسية ، بل فى عواطفه الغرامية ، فأكثر ما ترى تشبيبه مشبوبا حين يشبب بفاتنات باريس ولوزان وجنيف وافيان ، وله العتبى فى ذلك ، فقد كان كثير الرحلات الى أوربا ، والغـــريب يعانى من الكبت مالا يعانيه المقيم ، فضلا عن أن الجمال الأوربى غير مضروب عليه الحصار ، كما هو الشــــأن فى مصر فى ذلك العصر ، بل ان الفتاة هنالك تقرب أسباب الهوى للمتيم كما يقول عمر بن أبى ربيعة ، أو هى طوع العناق كما يقول عنترة ، أو هى كما يقول الشاعر الحديث فى فتيات « البلاج » .

هاهنـــا لؤلؤ بغير محـــار ســـابح باحث عن الغواص
وظباء لم تدر معنى النفـــار تضـــع السهم فى يد القناص

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلته يهيم بغير بنات جنسه ، وان كانت بنات جنسه لم يخلون من نصيب ، استمع اليه يقول فى فتاة من « افيان » اسمها « بلانش » أى بيضاء :

سألتها ما اســـمها ؟ قالت وقد ضـــحكت
بيضـــاء قلت لهـــا لم يحص معنـــاك
ففيك جمـــلة ألـــــوان ... مدبجـــة
غـــير البياض فمن فى الأصل ســـماك

فحمـــرة واصــــفرار ثـم أزرق في
خـــد وشـعر وطرف منـك فتـــاكِ
حــــركت قلبي وأيقظت الغـــرام به
بـــكهرباء الهـــوى من غير أســـلاكِ
وماء « افيان » يشـــفى الناس من سـقم
لـــكن قـلبى لا يشـــــفيه الاكِ

ثم استمع اليــه يقول وهو فى زيارة حمامات « مريمباد »
بالنمسا ليستشفى بمائها من السمنة :

أرجعـــوا لى ياغيـد مريمبـــادُ
مهجتى قبـــل عـودتى لبـــلادىَ
اننى قـــد شـــددت رحـلى وأهـلى
فى انتظـــارى فأطـــلقوا لى فـــؤادىَ
ليتنى لـم أزر حمـــاكم فـــانى
فى هـــواكم أضـــعت كل رشـادىَ
وبرانى الضـــنا فصـــارت ثيـــابى
فوق جســمى كمضــرب ذى عمـــادِ
وأتـــانى الســـقام من حيث أبـغى
صـحة وانهـزمت قبـل الجـــلاد
حـــدثوا أن فى حمـــاكم عيـــونا
تذر النـــاس ضـــامرى الأجسادِ

صـــدقوا انهـــا عيـــون ولـــكن
كحلت منـــذ خلقهـــــا بســـواد

ونحن نقول للشاعر : حسبه أنه ظفر بمراده من ضمور الجسم وازالة الشحم ، وان كان ذلك قد تم عن طريق العيون الحوراء ، لا عن طريق عيون الماء .

وفى غزل حفنى ما يجعلنا نشبهه بعمر بن أبى ربيعة فيما انفرد به بين شـعراء الغزل من رواية القصص الغرامية،وادارة الحوار بينه وبين معشوقاته : تجـد ذلك فى قصيدة له بدأها بقـوله :

ســمعت بأن لواخظى نظـرت لغيـ
ـر جمـالهـا فـأتت لتبلو ما بى
وسقتنى التهـــديد من كاســـاتها
علـــلا وتزعمـه كئوس عتـــاب
ياهنـــد كفى عن عتــــابى وارحمى
آثـــار روح آذنت بذهـــاب
ان كنت ملت الى القـلى وسـلى الملا
حـق الجـواب بـ « لا » وحق عقـابى
قالت ولـكن قـد نظـرت لغـيرنا
ودخـلت بيت الشـرك من أبـواب
لأ عـاملنـك بالجفـا وبقطـع أسـ
ـباب الـوفا ولأ منعنـك رضـابى

الى آخر ما دار بينه وبين فاتنته من حوار طريف فى هـذه القصيدة ، وحسبنا هذا القدر فى هذا الباب .

(ب) وطنياته : اذا كان حفنى ضعيف الوطنيـة فى نزعتـه الغرامية فانه ليس كذلك فى نزعته السياسية . لقد عاصر فتـرة اضطراب الحكم بين سفه اسماعيل وضعف توفيق ، وفشـل الثورة العرابية ، وضرب الاحتلال البريطانى على مصر ، فـكان لابد له ــ وهو الوطنى الغيور ــ ان ينضح ذلك كله على شعره.

ولسنا من البله بحيث ننتظر من حفنى تجريحا صريحا للذات الخديو المقدسة التى يحميها القانون ، ويزج بمن يمسها فى السـجون ، وربما كان له شىء من ذلك مما لا يسلك سبيله الى الاعلان ، وانما تلقيه الشفاه همسا فى الآذان ، ولكننا نستطيع أن نستشف مما بين أيدينا من شعره مبلغ استخفافه بالعرش من طرف خفى لا يدخل تحت طائلة القانون ، ألست تلمح ذلك فى استخفافه بالنياشين التى يمنحها الخديو ؟ يقول مثلا فى تهنئة اسماعيل صبرى «بنيشان» من هذا القبيل :

لست أدرى أبا « لنشـان » تحـلى
منـك صـدر أم « النشـان » بصدر؟
زاد مـولاك فى عـلاك فهـذا
حلى لب وتـلك حليـة قشـر

يقول له : ان مولاك الحقيقى زانك بالعقل والحكمة ، أمـا مولاك الزائف فلم يمنحك سوى قشرة من القشـور . بل اننا

نستشف هذا الاستخفاف من قوله فى قصيدته المشهورة التى أنشأها يوم حريق عابدين :

بل حكمة شاء الاله بيانها
لعبيده ليذيع الاستسلام
كى يعلموا أن الملوك وان علوا
قدرا تسير عليهم الأحكام

هذان البيتان هما بالتشفى أشبه منهما بالتعزية ، لكأنه يقول لسكان القصر : لاتغتروا بما تملكون من عز وجاه ، فان الأقدار ديموقراطية،لا تفرق بين الملوك والسوقة.واذا قلنا : انه قد سبق ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بالثورة على الألقاب فانه قد سبقها أيضا بالدعوة الى الاشتراكية فى عهد الاقطاع الذى لايعرف للقاعدة الشعبية حقا من الحقوق ، استمع اليه يقول فى أحد احتفالات الجمعية الخيرية الاسلامية متحدثا عن الفلاحين :

الله فيهم فحرث الأرض فى يدهم
يبدون من سرها ماكان مدفونا
وهم قيام على الانعام سائمة
وهم طهاة ونساج وبانونا
لهم يد كل يوم فى مرافقنا
فلتجر من فوق أيديهم أيادينا
فبادروا بزكاة المال ان بها
للنفس والمال تطهيرا وتحصينا

ألم تروا أن أهل المـــال فى وجـــل
يخشـــون مصرعهم الآ المزكينـــا ؟

فهـــل تظنـــون أن الله أورثـــكم
مالا لتشـــقوا به جمعـــا وتخزينـــا ؟

ما أنتـــمو غير قـــوام سيسألـــكم
الهـــكم عن حســـاب المســـتحقينا

والقصيدة كلها اشتراكية من فرعها الى قدمها تشعر بأنه كان يشعر بآلام الشعب ، فيثور فى وجوه الاقطاعيين منـذرا اياهم بثورة عارمة يلقون فيها مصارعهم ، مبينا لهم أن ما بأيديهم من المال ليس لهم وحدهم ، وليسوا بأكثر من مستخلفين فيه : فليت شعرى ماذا عسى كان يقول حفنى لو امتد به الزمن الى هذا العصر أكثر مما قاله فى هذه القصيدة ؟

على أنه مالبث حين قامت الثورة العرابية أن كشف القنـاع وتجاوز التلميح الى مايشبه التصريح فى مهاجمة العرش بقصيدة نونية أخرى منها :

لا أرجـــع الله أياما مـــررن بنـــا
أيام كنـــا نقاسى الظـــلم والهـــو نا

أيام كان ولاة الجـــــور فى ســـعة
وكان صـــاحبنا الفـــلاح مســـكينا

وكم أتيناهمو نشكو ظلامتنا
فما وجدنا أميرا قط يشكينا
تظنهم يوم تقليد الامارة أمـ
لاكا ومن بعد نلقاهم شياطينا

وما نظنه يعنى بالبيت الأخير سوى الخديو توفيق الذى كان وعد قبل توليه العرش باجابة مطالب الشعب ، ثم مالبث أن قلب له ظهر المجن .

على أنه ماكاد يفرح بقيام الثورة العرابية حتى صدم بفشلها، فهل سكت حفنى ؟ كلا ، وانما أخذ يغذى العواطف ، ويستنهض الهمم بشعره المكشوف تارة والمقنع تارة أخرى : بمثل قوله يوم خلف عباس أباه على العرش :

تمر مصيبةوتجىء أخرى
وترحل غمة وتحل غمة
كأن الحزن مكتوب علينا
فلا نرتاح يوما من ملمة

وبمثل قوله فى مناسبة أخرى :

فشر مقبل يتلوه شر
يفوت العمر فيه ولا يفوت
عجبت لمن له بصر وسمع
يرى هذا البلاء ولا يموت

ج ــ مراثيه :

سلك حفنى فى مراثيه سبيل الشعراء قديماً وحديثاً من تعداد مناقب الأموات وما خلفوه من برحاء فى قلوب الأحياء، وقد فجعه الدهر فى كثير من خلصائه : أمثال محمد عبده وقاسم أمين وسامى البارودى وجورجى زيدان وعبد الله فكرى والشيخين على يوسف وحمزة فتح الله وغير هؤلاء من أصدقائه الأصفياء ، فخلد كلا منهم بتمثال من صنع الوجدان ، لا من حجر وصفوان . وهو كثيرا مايبدأ مراثيه بمقدمات عن فلسفة الموت والحياة ، فيجيد القول :

أكذا آخر الحياة يكون	والى الموت ينتهى التكوين؟
ليس يدرى المنون حين رمانا	أى قلب أصاب منا المنون ؟
يبلغ المرء ما يريد ولكن	بعد تحريكه يكون السكون
كيف يرجى من الزمان أمان	ولقد خاب فى الزمان الظنون

وربما استطرد حفنى فى مراثيه، فعرض لموضوعات قد تكون هامة فى ذاتها ، ولكنها لاتمت الى مواقف الرثاء بوثيق صلات . استمع اليه يصف المدمرات الحديثة فى رثائه لجورجى زيدان

لئن كان ماأرخت فى زمن مضى	عظيما فما نستقبل اليوم أعظم
مدافع تستك المسامع دونها	وتخرج من أفواههن جهنم
وسفن تبارت فى المسير أراقما	اذا زال منها أرقم صال أرقم
وغواصة كالحوت تسبح خفية	تطيح بمرماها سفائن عوم
وطيارة لا يبلغ النسر شأوها	تدل على جيش العدو وتهجم

وقد يعد حفنى موت الصديق عدم وفاء منه بالعهد على مذهب الشاعر الذى يقول فى رثاء ابن له :

ان تذيبوا هكذا أكبادنا يابنينا فالردى أقسى العقوق

فهو يقول فى رثاء الشيخ على يوسف :

ياصديق الصبا وحافظ عهدى فى مثانى تلك السنين الخوالى
هل نقضت العهد القديم والا فلماذا سبقتنى بارتحال ؟
دار شر شددت رحلك منها ليت شعرى متى أشد رحالى ؟

ومعظم مطالع حفنى فى مراثيه تشهد له بالقوة والبراعة .

يستهل رثاءه لمحمد عبده بقوله :

لم لا تجيب وقد دعوت مرارا ؟ يكفى سكوتك أربعين نهارا

ورثاءه لعبد الله فكرى بقوله :

ليدع المدعون العلم والأدبا فقد تغيب عبد الله واحتجبا

ورثاءه للشيخ حمزة فتح الله بقوله :

من بعد حمزة يحمى حوزة الأدب
ومن يذود الأذى عن ألسن العرب ؟

ورثاءه لقاسم آمين بقوله :

بالأمس كان خطيبنا فى النادى واليوم مصرعه حديث الوادى

وقبل أن نختم الكلام عن مراثى حفنى نقرر أنه كان يلبس كل فقيد من رثائه كفنا مفصلا على أبعاد جسمه ، فالمرثية فى جملتها ان لم يكن كل بيت فيها — صورة من ملامح الفقيد الشخصية

على الرغم من تشابه الفجائع فى الموت ، وتشابه الخلال فى عظماء الرجـال .

(د) اخوانياته :

كان حفنى لين الجـانب ، دمث الخـلق من الموطئين أكنافا الذين يألفون ويؤلفون ، ومن ثم كان كثير الاخـوان ، ومعظم هؤلاء من رجال الأدب بين كاتب وشاعر ، ومن هنا اسـتغرقت اخوانياته مسـاحة كبيرة من ديوانه بين تهانىء وشكر ومدائح ومداعبات ومساجلات يضيق المقام عن ايراد بعضها على جهـة الاستشهاد ، فارجع اليها فى ديوانه :

(هـ) شعره النفسى :

ونعنى بهذا الشـعر مايتعلق بذاته هـو مما أنشـأه فى الفخر بنفسه ، أو شكوى بؤسه ، وكلا هذين ينبع من معين واحد هو شعوره بأن حظه فى الحياة لا يتناسب مع مواهبه وطموحه . وربما كان فيما شغله حفنى من مناصب ما يقنع به سواه ، أو يعتبره كثيرا عليه ، ولكن المجد أمر نسبى : مايوجب الشكر منه عنـد البعض ينطق بعضا آخر بالشكوى ، ومن هذا الفريق الطمـوح الذى لا حد لآماله كان المتنبى وكان حفنى ناصف ، يقول الأول :

يقولون لى ما أنت فى كل بلدة
وما تبتغى ؟ ما أبتغى جل أن يسمى

ويقـــول الثـــانى :

ولا أرى فى يسير العيش لى أملاً
ان كاف يقنع بعض القوم أيسره

وقـــد عرفت أن حفنى ناصـــف ـــ على الرغم من طمـــوحه ومواهبه ـــ كان هدفا لسلسلة لا تنتهى حلقاتها من الاضطهادات، لذلك لا نعجب اذا سمعناه يقول :

وقد رأت غير الدنيـــا شـــقاى ولم
تر المعـــالى وكان الحـــكم للغبن
وغاية كنت اســـعى نحوها زمنـــا
قضت ولم أقض من ادراكهـــا وطرى
وارحمتـــا لفنـــون ما بـــلغت بها
نفعـــا وقد ضاع فيها أطيب العمـــر
أقضى بيـــاض نهارى فى الدروس وسل
يأيها الشمس (١) نجم الليل عن ســـهرى
ويارعى الله أياما مضـــت عبثـــا
بين الزوايا وبين القـــوس والـــوتر
لم يجدنى الكد فى المنشور فائدة
ولا التعـــلم بالأهـــرام والأكر
وأى فائدة فى النحـــو أقصـــد ان
لم يرتفـــع بين أرباب العـــلا خبرى؟

---

(١) يقصد بالشمس الكبير الذى بعث اليه بالقصيدة .

ولعلك لم تنس بعد ماأشرنا اليه من ولعه بالاشارة الى المصطلحات العلمية فى شعره ، وأنت واجد فى ثلاثة الأبيات الأخيرة طائفة من المصطلحات الهندسية والنحوية .

(و) تقاريظه :

من المألوف أن يلجأ المؤلفون الى ذوى الأسماء اللامعة يلتمسون منهم تزكية مؤلفاتهم ، حتى تنفق سوقها ، وتشق طريقها الى أيدى القراء ، وكان من الطبيعى أن يكون حفنى ممن تدق أبوابهم ، ويكثر طراقهم لهذا الغرض ، فكان المؤلفون يحومون عليه تحويم الفراش على الأنوار ، والنحل على النوار . ونحن نفهم أن يقصده مؤلفو الكتب الفقهية أو اللغوية ، ولكن ماشأنه بكتب الطب والجراحة والفلك وغيرهما مما لم يتخصص فيه ؟

غير أننا نراه حين يقرظ كتابا من هذه الكتب لايقنع بالأوصاف العامة ، بل يأبى الا الدخول فى تفاصيل العلم ومصطلحاته :الأمر الذى يؤيد بجلاء ماسبقت الاشارة اليه من أنه كان حقا محبا للمعرفة ، وكان حقا أديبا يأخذ من كل فن بطرف . ومن طريف تقاريظه ماقرظ به كتاب « التذكرة » فى الجغرافيا لمحمود عمر اذ قال :

لو أن(بطليموس) عاين وضعه قبل(المجسطى) ماتجاذبه الأرق
أو أن (فيثاغورس) أبصرحسنه يوما لكلله من الخجل العرق

ومن طريف مايذكر له فى هذا الباب أنه تقدم اليه شاب ناشىء بديوان شعر هزيل ، فماذا يفعل حفنى وهو رجل حيى ، ولكنه فى

الوقت نفسه ذو ضمير حى ؟ لقد أحسن التخلص من هذا الموقف الحرج ، فلم يخيب رجاء الشاب ، ولم يخالف ضميره ، بل قال :

شـــعر الفحول الأوليـــ	ـــن أساســه شعر كهذا
لـكنهم حرصـــواعـلى	كتمــــانه الا جــــذاذا
لابأس فالهطـــــل الأجـ	ـش يـــكون أوله رذاذا (١)
فاعكف على الشـــعر القد	يم ولـــذ بكعبته لـــواذا
وقـــل القليـــــل فانه	بين الـورى أمضى نفـــاذا

(ز) تواريخه الشعرية :

تأريخ الحوادث بالشـــعر عن طـريق حسـاب حـروف الجـمـل مسألة قديمة شغلت شعراء المماليك بصـفة خاصة ، ثم من جاءبعدهم شغلا كبيرا ، وقدعقدت بعض الكتب الأدبية ككتاب « الطراز الموشى فى صناعة الانشا » لهذا الموضوع فصـــولا طوالا ، بينت فيها كنه التاريخ الشـعرى وطريقه وشروطه الى آخر مايتصل به . ومن الواضح أن هذا النوع من الكلام ليس من الشعر فى شىء اذا أريد من الشعر التعبير عن خلجات النفـوس، وانما هو أشبه بالمتون التى تنظم فيها قواعد الفنون لسـهولة استظهارها ، وهذه هى مهمة التاريخ الشعرى لأن حفظ الجملة أيسر من حفظ الرقم الأصم . ولقد ضرب حفنى الرقم القيـاسى فى هذا المضمار ، وامتازت تواريخه بما يتمتع به سائر شـــعره

(١) الهطل الأجش : المطر الغزير .

من سماحة وسلاسة ، حتى كأنه يرتجلها آرتجالا ، مع أنها أشق من الحفر بالأظافر فى الصخر . قال مؤرخا لبناء مسجد :

يارعى الله مسجداقد تحلى فى بناه وللمحاسن ألبس
انزه الطرف فى بناه وأرخ (مسجد جامع على الخير اسس)

وقال مؤرخا لزفاف صديقه « صبرى » :

بشراك قد مدت العليا اليك يدا
وقد دنا لك فى الأيام ما بعدا
وأقبلت نحوك البشرى مؤرخة
« زواج صبرى بأفراح السعود بدا »

ومهما يكن رأينا ورأى غيرنا فى هذا الضرب من الشعر — ان صح أن نسميه شعرا — فليس من شك فى أنه يدل على المهارة والقدرة على الصياغة ، وما أشبه هذا الشعر بما كان يعالجه الحريرى وغيره من انشاء أشعار لها مواصفات خاصة ، كأن يكون البيت كله مؤلفا من الحروف المهملة :

أعدد لحسادك حد السلاح وأورد الآمل ورد السماح

أو يكون مما يقرأ طردا وعكسا :

مودته تدوم لكل هول وهل كل مودته تدوم ؟

فالبيت الأول لاتجد فيه حرفا منقوطا ، والبيت الثانى تستطيع أن تقرأه مبتدئا بحرف الروى ، كما تقرؤه من أوله دون أن يتغير

لفظ البيت أو معناه . وهذا كما قلنا يدل على المقدرة والمهـــارة وان كان ليس من باب الشعر فى شىء :

ح ــ ازجـــاله :

يأبى حفنى الا أن يجمع المجد الأدبى من أطرافه ، فهو لا يقتصر على الشعر العربى الرصين ، بل يطرق باب الأزجال ، فيأتى فيها بما لا يخطر بالبال ، وأيا كان رأينا فى الزجل فهو تعبير شعرى رضينا أو كرهنا ــ ذلك آن الانفعالات والأحاسيس ليست وقفا عـلى الخاصة ، بل هى مضروب مشترك بين العامة والخاصة على السواء فاذا كان العامة لا يحسنون التعبير عما يحسون بلغة سيبويه فلهم لغتهم الدارجة التى لها من سواد الشعب أضعاف ما للفصحى منه على أن الزجل كثيرا ما يتغلغل فى أغوار النفوس البشرية ، وليس عهد «بيرم التونسى» ببعيد ، فله من الأزجال فى هذا المضمار ما لا تجده فى الشعر الفصيح الا لشاعر كأبى الطيب المتنبى ، عـلى أن الأغنية العامية قد اكتسحت ميادين الاذاعة والتلفزيون حتى بات يخشى منها على الأغنية المؤلفة بلغة الجاحظ وابن المقفع .

ونحيلك مرة أخرى على ديوان حفنى ان أردت الاطلاع على أزجاله ، فانك واجد منها فى هــذا الديوان ما يرضى الأبطــال فى فن الأزجال

قصيدة "قنا"

ليست هذه القصيدة خير قصائد حفنى ناصف ، ولـــكنها اشتهرت شهرة لم تشتهرها قصيدة أخرى فى ديوانه ، وقلمـــا اشتهرتها قصائد أخرى فى دواوين غيره من الشعراء ، وقد عرف حفنى بها ، كما عرفت هى به حتى صار كلاهما علما على الآخر وحسبك أن تعلم أن القنويين بلغ من اعتزازهم بها أنهم علقـوها على أستار ضريح السيد عبد الرحيم القناوى القطب المشهور ، كما كانت تعلق عيون القصائد على أستار الـكعبة فى الجـاهلية ، لذلك آثرنا أن نسجلها هنا كانتاج فنى متكامل العناصر ، ثم نتبعها بشىء من التعليق :

رقيتنى حســـــا ومعنى	فلفضـلك الشــكر المثنى
وجعلت رأس الحاســـدي	ن بمصر من قــدمى أدنى
وجعلت ســــدة منزلى	من أسـقف الهـرمين أسنى
أســكنتنى فى بقعـــة	فيهــا غدوت أعز شــأنا
أرد المشـــارع ســابقا	والسـبق عن الورد أهنـــا
وأزور آثار المـــــلو	ك وكنت قبـل بهـــا معنى
بلـــد اذا حـلت بــه	قـدماك قلت حللت حصـنا

جبـل المقطم حوله   متعطف كالنون حسنا
هيهات أن يصل العدو   له ويدرك ما تمنى
أرأيت يوما مثله   فى القطر تحصينا وأمنا
النبت فى غيطانه   متقدم غرسا ومجنى
والشيء يعظم حجمه   فى جوه ويزيد وزنا
فالسدر كالرمان والـ   جميز كالبيض المحنى
والدوم فيه دائم   يفنى الزمان وليس يفنى
فخاره لهج الأنا   م بمدحه يسرى ويمنى
يكفى لترويج الأوا   نى أن يقال « قنا » فتقنى
قالوا شخصت الى قنا   يا مرحبا بقنا واسنا
قالوا سكنت السفح قل   ت وحبذا بالسفح سكنى
قالوا قنا حر . فقلـ   ت وهل يرد الحر قنا؟
سر الحياة حرارة   لولاه ما طير تغنى
كلا ولا زهر تبسـ   م لا ولا غصن تثنى
والحى بدء حياته   بعد التزام البيض حضنا
تتدفق الأنهار من   حر وتزجى الريح مزنا
ها قد أمنت البرد والـ   برداء والقلب اطمأنا
ووقيت أمراض الرطو   بة واستراق الريح وهنا
ألقى الهواء فلا أها   ب لقاءه ظهرا وبطنا
وأنام غير مدثر   شيئا اذا ما الليل جنا
قد خفت النفقات اذ   لا أشترى صوفا وقطنا
ووفرت من ثمن الوقو   د النصف أو نصفا وثمنا
فالشمس تكفل راحتى   فكأنها أمى وأحنى

فاذا بـدت لى حـاجة في الغسـل ألقى الماء سخنا
أو رمت طبخـا أو علا ج الخبـز ألقى الجو فرنا
مسكنى القرى تدع السفيه موكلا بالمـال مضنى
أى الملاهى فيـه يصـرف مـاله ومتى وأنى ؟
لكل امرىء تلقـاه من بعـد الظهيرة ، مستكنا
ويرى الغـريب السعر أيسر حالة وأخف غبنـا
يجد الحليب بعينـه لبنـا ويلقى السمن سـمنا
عش فى القـرى رأسـا ولا تسـكن مع الأذناب مـدنا
وارباً بنفسـك أن ترى مستمرئا فى العيش جبنـا
ودع الجـزيرة والمهـا والجسر والظبى الأغنـا
واسل الأغانى والغـوا نى واسـأل الرحمن عـدنا

وقبل أن تتناول هذه القصيدة بالتعليق نذكرك بما أسلفناه من سبب انشائها ، فهو ذو صـلة وثيقة بالموضوع . لعلك تذكر أن حفنى ناصف أريد اقصاؤه عن التدريس بالجامعة ، فنقل الى طنطا فلما لم ينقطع أقصى الى قنا حيث لايستطيع الحضور يوميا كما كان يفعل فى طنطا .

اذا عرفت ذلك عرفت أن الشكر المثنى الذى يسديه الى وزير الحقانية الذى بعث بالقصيدة اليه انما هو شكر زائف سببه وخز الألم ، لا اسداء النعم ، فهو من باب :

وتجلدى للشـامتين أريهمـو أنى لريب الدهر لا أتضعضع

لذلك نراه يضفى على قنا جمالا ليس لها ، بل يقلب مساويها

محاسن ومفاتن ، ففيها يرتفع مكانه ، حتى تكون رءوس حساده أدنى من قدميه ، وفيها يرد ماء النيل صافيا قبل أن تلوثه أفواه الشاربين من أهل القاهرة ، وفيها يتمتع بالجنى مبكرا قبل أن يتمتع به القاهريون . أما حرها اللافح فهو سر الحياة كلها ، وبه أخذ مناعة ضد البرد والرطوبة ومايسببانه من أمراض ، ثم هي مدينة منقطعة ، بيد أن انقطاعها نعمة لا نقمة ، فهو يحمله على الادخار حيث لا مصارف للنقود ، فضلا عن أن حرارة جوها أغنته ليلا عن الغطاء ، ونهارا عن مضاعفة الكساء ، ووفرت عليه ثمن الوقود وفيم الوقود وماؤها ساخن ، وجوها فرن ؟ ثم لايضر قنا أنها بلد ريفية لاحاضرة كالقاهرة ، فهو فيها علم مشهور ، وفي القاهرة نكرة مغمور .. الى آخر ما أورده مما يدور في هذا الفلك .

ان حفني ناصف في هذه القصيدة سلك سبيل أبي الحسن الأنباري في رثاء أبي طاهر بن بقية الذي قتل مصلوبا ، فاتخذ الشاعر من مظاهر صلبه أسبابا لرفعة شأنه وعلو مكانه :

علو في الحياة وفي الممات	لحق أنت احدى المعجزات
كأن الناس حولك حين قاموا	وفود نداك أيام الصلات
كأنك قائم فيهم خطيبا	وكلهم قيام للصلاة

الى آخر ماورد في هذه القصيدة مما يحبب الصلب الى الأحياء حتى قيل : ان القاتل ود لو كان هو المصلوب ، وفاز بهذه القصيدة .

وفى قصيدة قنا يبدو لك حفنى العالم الجغرافى الذى يعرف أبعاد الأماكن عن سطح البحر ، وخطوط سير الأنهار ، ومنحنيات الجبال وأثر البخار فى تكوين الأنهار . كما يبدو لك حفنى العالم الطبيعى الذى يتكلم عن تمدد الأجسام بالحرارة ، واختلاف وزنها باختلاف بعدها عن سطح الأرض ، كما يبدو لك حفنى العالم بالتاريخ الطبيعى الذى يتكلم عن أثر الحرارة فى نضج الزرع وفقس البيض ، كما يبدو لك حفنى الطبيب الذى يتكلم عن الرطوبة وأمراضها ، وأثر الحرارة فى صحة الأجسام ، كما يبدو لك حفنى العالم الاقتصادى الذى يتحدث عن السلع وأسعارها ، والسمن واللبن وطرق غشهما ، والمال وطرق ادخاره ، كما يبدو لك حفنى العالم الاجتماعى الذى يوازن بين سكنى المدن وسكنى القرى ، ويتكلم عن أثر اختلاط الجنسين ، وأخيرا يبدو لك حفنى العالم الأخلاقى الذى يرسم لك المثل العليا فى الشجاعة الأدبية وتحمل الشدائد فى سبيل الاحتفاظ بالكرامة .

ولعل نصيب هذه القصيدة من المنطق أكثر من نصيبها من الشعر ، ولا سيما فيما سرده من فضل الحرارة ، فهو أشبه بالأقيسة المنطقيه والبراهين الهندسية منه بالصور الشعرية .

كل هذه المعانى ، مع دقة الصياغة ، وطرافة الموضوع ، وخفة روح الشاعر ـ كفلت لهذه القصيدة الخلود .

رأى العقاد فى حفنى

للاستاذ العقاد — عليه رحمة الله — رأى خـاص فى حفنى ناصف ، ولكننا قبل أن نعرض هذا الرأى نستعرض خلاصة آرائه فى غير حفنى من الشعراء المعاصرين كما وردت فى كتاب « شعراء مصر وبيئاتهم فى الجيل الماضى » .

يقول عن شوقى : ان شعر الصنعة فيه قد ارتفع الى ذروته العليا ، وهبط شعر الشخصية الى حيث لاتتبين لمحة من الملامح ، ولا قسمة من القسـمات التى يتميز بها انسـان عن سـائر النـاس .

ويقول عن حافظ : ان شعره لايقرأ ، لأنه لاعمق فيه ، وانما يسمع فقط من فوق المنابر ، لأن حافظا كان يجيد الالقاء ، فهو أجدر بملء الاسطوانات ، لابطبع الدواوين .

ويقول عن اسماعيل صبرى : ان شعره لطيف ، ولكن لاقوة فيه ولا حرارة .

ويقول عن الشيخ عبد المطلب : ان الشعر عنده مسألة لغة ، وفصاحة لغوية ، بل مسألة لغة بدوية عربية لاتتـم على أكملها وأرقاها الا فى أسلوب كأسلوب الشعراء الجاهليين .

ويقول عن عبد الله فكرى بعد أن عرض لاحدى قصـــائده فى الاعتذار : ربما كانت هذه خير ما نظم فى اللفظ والمعنى ، ولكنها مع ذلك من الأغراض التى تخطر لكل معتذر ينظم أولا ينظم ، فلم يزد عليها من وحى الشاعرية مايمتاز به طبـع الفنـــان ولهجته فى التعبير .

بعد هذا العرض الخاطف لانرى بأسا من عرض رأيه فى حفنى على أن نحتفظ بحقنا فى مناقشته :

قال العقاد عن حفنى ما نصه تقريبا : « كان فكها سريع الخاطر فى النكات البادرة ، حافظا لنوادر الظرفاء ، وأخبـار السـلف الصالحين وغير الصالحين ، وكان فوق ذلك عالما باللغـة ، راويا للأشعار ، ناظما يجيد النظم ، ويأتى فيه بالمعانى الطريفة ، والفكاهات المستملحة ، فلا جرم يكون على ذلك الرأى شـاعرا ، وفى طليعة الشعراء ، ولا جرم يسلكه تاريخ الأدب الحديث فى عالم الشعر ويذكره بين المتفرغين له من أبناء جيله الأسبقين ، على أنه فى رأينا لم يكن صاحب طبيعة شعرية .. الخ »

ولنا أن نتساءل عن كنه هذه الطبيعة الشعرية التى حرمها حفنى ناصف ، ورزقها عبد الرحمن شكرى وابراهيم المازنى . لقد ظـل العقاد طول حياته يشيد بقلمه الجبار بهذين الشاعرين بمقـــدار ما اتخذ هذا القلم نفسه معولا لهدم كبار الشعراء ، فماذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجة فيمن هدمهم العقاد هى ما أشار اليـــه شوقى فى رثاء حافظ حين يقول :

ماحطموك وانما بك حطموا   من ذا يحطم رفرف الجوزاء ؟

وأما شكرى الذى جعله العقاد خليفة «أبولو» فقد ملأ الدنيا صياحا وصداحا ، فلم يرو من شعره قليل ولا كثير ، اذ كان شعره بالنظريات الهندسية أشبه منه بالصور الشعرية ، ومن هنا سقط فى الميدان تحت سمع العقاد وبصره ، فلم يستطع ــ على قوته ــ أن يقيله من عثرته .

وأما المازنى فقد كان العقاد بالنسبة له ملكيا أكثر من الملك ــ كما يقولون ــ فهو : أى المازنى نفسه يقرر أن لديه مقياسا يقيس به الانتاج الأدبى ، وهذا المقياس يتلخص فى أنه بعدقراءته يسائل نفسه : هل أفدت جديدا ؟ فان كان الجواب بالايجاب كان الانتاج قيما ، وان كان الجواب بالسلب كان عديم القيمة . ثم يقرر : أى المازنى نفسه أنه طبق هذا المقياس على ماقرضه من شعر فكان الجواب بالسلب لا بالايجاب .

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن سر حملة العقاد الشعواء على كل جهير الاسم من الشعراء . الذى لاشك فيه أن العقاد كاتب ألمعى، والذى لاشك فيه أنه عالم ضليع ، وان شئت فقل : فيلسوف كبير وقد غطى على غيره فى ميادين العلم والفلسفة ، ولكنه حاول أن يغطى على غيره فى ميدان الشعر ، فلم يغط على سواه ، بل غطى عليه سواه ، ذلك لأن الشعر يعتمد على الموهبة والسليقة قبل أن يعتمد على العلم والفلسفة ، واذا كان حفنى ناصف يضارعه

فى علمه — على اختلاف نوع هذا العلم — فليس من شك فى أن أحمد شوقى وسامى البارودى لم يكن لهما علم العقاد ، ولـكن ليس من شك أيضا أن لهما من الشعر ماليس له ، والعقاد نفسه يعترف بأن الشعر يعتمد على الموهبة والسليقة ، فهو يقول فى صدد كلامه عن حفنى نفسه : « ان الشاعرية ليست فرضا محتوما على جميع الناس ، ولا التجرد منها عيب يقدح فى مكان الرجل مادام ذا مكانة فى باب من أبواب العلم والأدب والحياة الاجتماعية تكافىء مكانة الشاعرية » هذا مايقوله العقاد ، ولنا أن نعقب على قوله هذا بأنه كان أولى به أن يطبقه على نفسه ، ويقنع بالسبق فى ميادين العلم والكتابة ، وماهذا بالقليل .

وليس معنى هذا أننا نغض من شاعرية العقاد ، بل اننا نعترف له بنصيبه من الشاعرية ، ونعترف بما جدده فى الشعر من صور وأخيلة ، ولكن الذى نشك فيه كل الشك أن يكون قد أربى فى هذا المضمار على من وقف حياته على هدمهم من كبار الشعراء

ومادمنا بصدد الكلام عن رأى العقاد فى حفنى فقد يكون من الطريف أن نذكر معنى مشتركا بينهما عبر كل منهما عنه فى بيت من الشعر مسجل فى ديوانه ، مع ملاحظة أن حفنى ناصف كان أسبق من العقاد وجودا .

قال حفنى فى النوم :

والنوم سلطان مراسيمه   تتلى على الأعين والراس

وقال العقاد في النوم :

أيا ملكا عرشه في الجفون يظلل دنيا الكرى بالجناح

واذا كان لنا أن نعقد الموازنة بين البيتين ساغ لنا أن نقول :

١ ــ قصر العقاد النوم على العيون ، وليس النوم في اطباق العينين بقدر ماهو في فقد الادراك الذى محله الرأس ، على حين أشار حفني الى كلا الجانبين .

٢ ــ كلا الشاعرين شبه النوم بالسلطان ، غير أن العقاد رشح للتشبيه بذكر العرش ، وحفني رشح له بذكر المراسيم ، والمراسيم أكثر ملاءمة لهذا العصر ، فهي اصطلاح حديث .

٣ ــ تضمن بيت حفني تورية لطيفة في قوله : « على الأعين والرأس » بخلاف بيت العقاد .

٤ ــ لم يسلم بيت العقاد من تداخل الاستعارات ، فهو يشبه النوم بالسلطان ، ثم يشبه عرش هذا السلطان بطائر ذي جناح ، فضلا عن اثباته ان للكرى دنيا .

٥ ــ اذا كان الكرى معناه النوم ، والملك في بيت العقاد يراد به النوم أيضا ، فما معنى أن النوم يظلل دنيا النوم ؟ ان أقل مايقال في هذا الكلام : انه تعقيد معنوى .

تشرحفني

١ ــ كلمة عامة :

« هاجت لى الأشواق العذرية ، وعاجت بى لواعج الأتواق الفكرية الى ورود حمى مصر المعزية ذات المعاهد الحسنة، والمشاهد الرفيعة ، لأشرح بمتن حديثها الحسن صدرى ، وأروح بحواشى نيلها الجارى روحى وسرى ، وأقبس من نور مصباح الظرف من ظرفائها ، وأقتطف نور أدواح الطرف من لطفائها ، وأستجلى عرائس بدائع معانى العلوم على منصات الفكر محلاة المنثور والمنظوم »

هل فهمت أيها القارىء الكريم من هذا الكلام شيئا ؟ انه جزء من مقامة انشأها علم من أعلام الأدب فى أخريات عهد المماليك اسمه الشيخ مصطفى الدمياطى ، وقد تعاظل فيها ماشاء له التعاظل وجرى فيها وراء السجع البارد ، وألوان الجناس المبتذل جريا يدمى الأرجل : أشواق وأتواق ،ومتون وشروح وحواشى ،وتوالى اضافات : « عرائس بدائع معانى العلوم » كل هذا جعل المعنى يضل فى ثنايا المقال ، كما نضل المدارى فى شعور ربات الحجال .

كان هذا هو الأسلوب السائد فى عصر ماقبل النهضة الحديثة ، وبفضل المدرسة التى أشرنا اليها سابقا باسم مدرسة حفنى ناصف انتقل أسلوب الكتابة من هذه الوهدة التى تردى فيها الى ماصار اليه فى عهد حفنى ومعاصريه من أمثال رفاعة الطهطاوى وعبد الله فكرى ومحمد عبده وعبد الله النديم ، وابراهيم المويلحى والمنفلوطى وغيرهم .

انتقلت الكتابة من طور الى طور ، وأصبحت تدل بعد أن كانت عديمة الدلالة ، تارة فى أسلوب مرسل ، وتارة فى أسلوب مسجوع وكان لحفنى — كما أشار الشيخ الاسكندرى — فى كل من الأسلوبين رسائل بليغة .

وهنا أزيد أن أصحح خطأ شائعا بين مؤرخى الأدب ، وذلك حين يقولون عن ابن خلدون مثلا ، أو عن محمد عبده ، أو عن حفنى ناصف : انهم حرروا الكتابة من قيود السجع الى أسلوب الترسل ، فالواقع أنه لم يكن للسجع عصور ، وللترسل عصور أخرى ، وانما سار الأسلوبان جنبا الى جنب من عهد قس وسحبان الى الآن : جمعت بينهما العصور المختلفة ، كما جمعت بين الحلو والحامض من الأطعمة ، وبين القاتم والزاهى من الملابس ، وبين الأصفر والأحمر من الزهور ، ولم تقم بين كل صنفين من هذه الأصناف حروب شعواء ، كتلك الحروب التى أقامها الأدباء بين السجع والترسل فى عالم الانشاء ، فلكل من الأسلوبين مذاقه الخاص ، وظروف يستحسن فيها أو يستهجن ، ومن هنا لانعجب

اذا رأينا كاتبا كحفنى يسجع أحيانا سجع ذوات الأطواق ،ويترسل أحيانا ترسل الماء الرقراق ، وما مثل النثر فى أسلوبيه الا كمثل الرسم فى صوره « الكاريكاتورية » وصوره الزيتية : كلاهما معبر ، ولكل موضعه ، كان حفنى يسجع ويصطنع المحسنات البديعية فى قوة واحكام حين يكون المقام مقام تأثير على العاطفة، وامتاع باللذة الفنية ، وكان يترسل حين يكون المقام مقام منطق وادلاء بالحجج والبراهين كما هو الشأن فى كثير من كتاباته الصحفية ، وتآليفه العلمية . ولم يكن حفنى نسيج وحده فى اصطناع كلا الأسلوبين ، بل شاركه فى ذلك كثير من كتاب عصره، وعلى رأسهم الشيخ محمد عبده ،على عكس ماهو شائع فى تاريخ الأدب الحديث من أنه ــ أى محمد عبده ــ حرر الأسلوب من قيود السجع حين تولى تحرير الوقائع المصرية ، وقد مر بك شىء من سجعه فى رسائله .

ومادام الكلام قد جرنا الى السجع فلابد من الادلاء برأينافيه فقد اتسعت فيه مسافة الخلف ،حتى آمن به قوم ايمانهم باللاهوت وكفر به آخرون كفرانهم بالطاغوت .

السجع نصف الشعر ، مافى ذلك شك . فاذا اتزن السجع كان شعرا ، واذا اختل ميزان الشعر كان سجعا ، فاذا كان للشعر فضل على سائر أنواع الكلام من حيث قوة الاسر والتأثير على العاطفة كان للسجع نصف هذا الفضل . اذن ماسر الحملة الشعواء

التي يشنها خصومه عليه ؟ ان السر في ذلك يرجع ـ فيما نرى ـ الى الأسباب التالية :

أولا : أن الناس مولعون بمحاكاة كل جميل رائع ، وليس كل انسان قادرا على هذه المحاكاة ، فهناك المحاكاة التى لاتكاد تفترق عن الأصل ، وهناك المحاكاة التى تتجافى عن الأصل ، وتهبط الى الدرك الأسفل من القبح والغثاثة ، وبينهما درجات . وقد أخذ الناس من قديم بسحر السجع الوارد فى فقرات قس بن ساعدة وغيره ، وزاد فتنة الناس به ماورد منه فى أبلغ كتـــاب عرفته الانسانية : وهو القرآن الكريم ، فأخذوا يعالجـونه فى مختلف العصور ، واذا كان أمره قد استقام لكاتب كابن العميـد ، أو أو الصاحب ابن عباد ، أو بديع الزمان فان آلافا غير هــؤلاء قد أخفقوا فيه أيما اخفاق ، فلم يأتوا منه الا بما تمجه الأذواق ، ومن هنا حمل الحمقى على السجع والساجعين ، وكان الأجـدر بهم أن يفرقوا بين الأسلوب والكاتب ، ومامثل ذلك الا مثل طبيب فاشل مات على يديه كثير من المرضى ، فأخذ الناس يسـتنزلون اللعنة على الطب والأطباء ، وما يصفون من دواء ، يجب أن نكون منصفين ، فنفرق بين الشيء ومن يستعمله ، فالسيف سيف وان نبا فى يد الجبان ، والعصا عصا وان قهر الشجاع بها الأقران .

ثانيا : ان السجع ـ كما قلنا ـ من فصيلة الشعر ، فاذا كان الشعر بطبيعته يحتاج الى روية وجهد فان السجع بدوره يحتاج الى مثل ذلك ، وليس عصرنا فقط هو عصر السرعة ، وانما الوقت

من ذهب منذ دارت الأفلاك الى أن تقف حركتها ، ومن هنـــا اشتدت الحملة على السجع ، ولاسيما فى عصرنا الحاضر : عصر الصحافة الذى تعمل فيه الأقلام ليل نهار، لتملأ ماتفيض به الصحف من أنهار . ولكن هذا لايغض من قيمة السجع ، فنحن نتقاضى ثمن مانبذله فيه من وقت وجهد متعة فنية ، وخلودا للأثر الفنى ، فأنت تقرأ المقال الصحفى ، بل تقرأ كتابا ككتاب الأيام لطه حسين مرة فلا تعود اليه ، على حين أنك تقرأ كتابا كحديث عيسى بن هشام مثنى وثلاث ورباع ، فتجد فى كل مرة تكرره فيها لذة جديدة .

ثالثا : ان السجع بحكم مافيه من موسيقى قد تغطى موسيقاه على معناه ، كما يشغل المحراب المنقوش المصلى عن احكام الصلاة ولكن هذا المعنى الذى يحتاج الى جهد فى استخراجه يكون أثبت فى الذهن بعد الوصول اليه ، ومامثل ذلك الا مثل الطائر النفيس تضعه فى قفص أنيق يخفيه بعض الخلفاء ، ولكنه يضمن له البقاء .

وبعد ، فلا ننسى أن النشيد الوطنى فى الحركة الوطنية التى قام بها سعد زغلول كان سجعة أطلقها : « الاستقلال التام أو الموت الزؤام » ولا ننسى أن سجعة ثانية رمت الشعر بآبدة : « أعذبه أكذبه » وأن سجعة ثالثة عزلت قاضيا عن منصبه : « أيها القاضى بقم ، قد عزلناك فقم » .

ولحفنى نفسه مقال طويل يدافع فيه عن السجع ، ويضـــع الأمور فى نصابها ، وقد بدأ هذا المقال بقوله : « أخذوا فى ذم

السجع والمقفى ، وأطلقوا القول فى تهجينه وضللوا المتقدمين من المنشئين وأئمة الأدب ، وفرســان البراعة . ولا أقول : ان ذلك ناشىءعن عجزهم ، وقلة بضاعتهم فى هذا الشأن ، فأخذوا يحسنون القبيح ، ويقبحون الحسن سفسطة على العالم ومغالطة للنــاس ، ومن جهل شيئا عاداه . بل أقول : ان هذا اطلاق فى مقام التقييد، وارسال العنان فى موضع الامساك ، واجمال فى ساحة التفصيل والحق أن لكل مقام مقالا .. الخ »

ومما يلفت النظر فى هذا المقال أنه يدافع عن السجع بأسلوب مترسل ، وهذا مصداق قوله : ان لكل مقام مقالا ، والمقام هنا مقام الحجاج بالمنطق والبرهان .

ويتمثل نثر حفنى ناصف فيما يلى :

١ ــ رسائل كتبها الى بعض شيوخه وأصدقائه .

٢ ــ تقارير كتبها بتكليف من جهات رسمية .

٣ ــ مقــالات نشرها فى مختلف الصحف : كالأهــرام والاسكندرية والجوائب المصرية والبيان وروضة المدارس وغــير ذلك من الصحف .

٤ ــ عدة مقالات أنشأها على نمط المقــامات معظمهــا فى أغراض وطنية .

٥ ــ عدة خطب ألقاها فى مناسبات مختلفة .

٦ ــ عدة تقاريظ على نحو مامر بك فيما سقناه من أشعاره .

أما أبحاثه ومؤلفاته فسنفردها بالكلام حين نعرض لك خلاصتها وأسلوبه فى معالجتها .

٢ ـ خصائص نثـره .

من الصعوبة بمكان أن ترد نثر حفنى الى المنابع التى استقاه منها على وجه التحديد ، ولكنك على وجه الاجمال تستطيـع أن تقول عنه : انه حريرى العصر الحديث أو بديع زمانه ، وليس معنى ذلك أنه لم يتأثر بغير أساليب المقامات ، فانك واجد فيـه ملامح من أسلوب الجاحظ فى سخريته ومنطقه واستيعابه لأطراف الموضوع ، وواجد فيه كثيرا من الماع ابن زيدون الى الحـوادث التاريخية ، وكثيرا من أسلوب ضياء الدين بن الأثير فى اعتماده على كثرة محفوظة من الأدب العربى ، قرأ حفنى لـكل هـؤلاء ولغير هـؤلاء وهضم ماقرأه ، حتى صار جزءا لايتجزأ من كيانه الأدبى .

أما خصائص نثره فهى فى جملتها لاتخرج عما أسلفناه فى خصائص شعره من شيوع الدعاية ، والاكثار من المحسـنات البديعية من سجع وتورية وجناس واقتباس . غير أن هنالك ظاهرتين فى نثره تحتاجان الى تفصيل قليل (الأولى) أنه قد يبنى المقـالة على النثر والشعر معا وكلاهما من انشائه وكذلك كان يفعـل حافظ ابراهيم فى بعض رسائله (الثانية) انك تجد الطـابع الغالب على نثره هو طابع الجزالة بعكس ماقلناه عن شـعره فاذا

كان شعره لايحتاج الى اعمال الروية أو استشارة المعاجم فان نثره ليس كذلك : الأمر الذى جعلنى أكاد أعده أصيلا فى النثر ، واعتبر شعره من باب شعر الكتاب الذى عقد له ابن رشيق بابا خاصا فى كتاب «العمدة» بدأه بقوله : « والكتاب أرق الناس فى الشعر طبعا ، وأملحهم تصنيعا ، وأحلاهم ألفاظا ، وأنصعهم معانى ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم عن تكلف .. الخ »

٣ ــ رسائل حفنى

تدور معظم رسائله فى فلك المودة ، والتعارف قبل اللقاء وبث الأشواق ، وابداء ولائه لأساتذته ، والتعزية فى مصاب ، والتهنئة بترقية أو زفاف أو حلول شهر الصيام ، كما له رسائل مسهبة فى الشكوى من زحمة العمل ، وقيود الروتين الحكومى ورسائل أخرى فى العتاب والاعتذار والاسترضاء والتوصية والشفاعة لمن يعرف ومن لا يعرف .

ونظرة عابرة الى هذه الرسائل تلقى أضواء كاشفة على أساليب ذلك العصر فى معالجة الموضوعات الأدبية والاجتماعية كماتكشف عن النواحى الثقافية العامة ، وتشيرالى بعض المشكلات التى كانت موضع عناية المصلحين فى تلك الحقبة : كمشكلة التعريب ، وانشاء المجامع اللغوية ، ومشكلة الروتين الحكومى ، واهتضام حقوق الوطنيين ، واحتضان المحسوبين الوصوليين ، وتغلغل الفساد فى الدواوين .

وفى هذه الرسائل تتجلى مكانة حفنى ، لا من حيث اجادته فى كتابته فحسب ، بل من حيث آراء الكتاب والشعراء وأعلام الفكر فيه ، فالشيخ على يوسف مثلا يبعث الى حفنى برسالة يثنى فيها على « القاضى الفاضل » ويبدى اعجابه وعجبه من تصرفه فى أسلوبه هذا التصرف البلاغى البارع ، مع انشغال باله بكثرة أعماله ، وما يتطلبه القضاء من كد وعناء ، فكيف لو تفرغ للآداب ؟ اذن لكان أكتب الكتاب .

والأمير شكيب أرسلان يكتب اليه من باريس ، وهو قاض بأسيوط ، فيبثه الأشواق ، ويود لو أخذه بالعناق بأن يعرج عند عودته الى لبنان على مصر ، ثم على أسيوط ، ولو ابتلعه التمساح فى نيلها . كل ذلك ليحظى بمشاهدة حفنى ، ويستمتع عن كثب بما يتحلى به من علم وأدب .

وفى مثل ذلك يكتب له محمد المويلحى ، وجورجى زيدان ، وغيرهما . ولنا أن نستنتج من كل ذلك ماكان لحفنى من مركز مرموق فى عالم البيان بين أدباء هذا الزمان ، وقد يكون من المفيد أن ننقل اليك فقرات من رسالة له بعث بها الى صديق له يشكره فيها على يد عصا أهداها اليه ، وهى من الرسائل المبنية على النثر والشعر معا ، كما أشرنا آنفا :

« الهدية فى نظر الأصفياء جليلة ، وان كانت قليلة ، ومكانتها خطيرة ، وان كانت يسيرة وسنة حسنة اجتمعت على فضلها الألسنة

مضت الدهور وأمرها مستحسن   وتعاقبت بمديحها الأيام

اللهم الا ان لبست جلباب الرياء ، وولجب أبواب الارتشاء، ولا مراء أن الأوداء من ذلك براء

لايبتغون سوى الوفاء ومالهم   غير البقاء على الصفاء مرام

وما زالت الهدية شعار الأصدقاء ، وعنوان تذكار الولاء ، وكم جددت بين الأصحاب عهود التحاب

وتعهدت ودا فعاد شتيته   ولشمله بعد البداد نظام

وقد وصلتنى يد العصا ، فحبذا الاهداء ، وأهلا بتلك اليد البيضاء ، وليست هذه أولى أياديك على ، ولا أول عارفة جاءت من ناديك الى ، وقد أمنت بها النوب ، واعتضدت بها على تفريق شمل الكرب

فاذا طغى بحر الهموم ضربته   بعصاى فاجتازت به الأقدام

تتعلق بها من الأيام صخور ، فتنبجس عنها عيون السرور ، وتلقف ما يصنع الأعداء ، فتذهب بسحر البغضاء ، واذا اشتد هجير الوحشة نشرت ظلال أنسها ، أو عصى فرعون الدهر راعته ببأسها .. الخ » .

وفى هذه الرسالة تتجلى ثقافته القرآنية ، فقد استغل فيها معلوماته عن عصا موسى ، وفلقها البحر ، وتفجيرها العيون من الصخر ، والتقافها ما يأفك السحرة والسحر ، وتأديب فرعون بها: استغل معلوماته عن ذلك ، وولد منه المعانى توليدا لا يتأتى الا لمن هو فى ثقافته الدينية اللغوية .

٤ ـ تقريراته :

كان حفنى ينتدب لبعض المهام الثقافية ، ويطلب اليه أن يضع فيها تقارير تلم بأطراف موضوعاتها ، وكان أسلوبه فى هذه التقارير أسلوب الخبير المحقق ، لا الفنان المنمق ، فهو يعمد الى الهدف ، ويضرب فى الصميم ، ويدعم ما يقول بالأرقام فى أسلوب مترسل غاية فى الاحكام وصدق الأحكام .

٥ ـ مقالاته :

كان لحفنى مشاركة ايجابية فى أدب المقالة الصحفية تجلت فى مقالاته المتعددة فى الصحف اليومية والمجلات الأدبية اللتين كانتا تصدران فى هذه الفترة ، وكان يمهر بعض هذه المقالات بتوقيعه ، ويوقع البعض الآخر بتوقيع مستعار : هو « ادريس محمدين » وأسلوب هذه المقالات يترجح بين السجع والترسل ، أما النوع المرسل فكان يصطنعه فى حجاجه ، ورده على معارضيه ، وما يطرق من الموضوعات العلمية والاجتماعية ، وأما النوع المسجوع فيكاد يكون مقصورا على غرض واحد : هو التنديد بجريدة الاعتدال ومحررها « يحيى السلاوى » ويبدو أن هذا الـ « يحيى » لم يكن متجاوبا مع الحركة الوطنية التى كرس حفنى لها حياته ، وجرد لها قلمه ، لذلك نجده فى هذه المقالات يخلع ثوب الوقار ، ويغمس قلمه بدل المداد فى القار .

فمن أمثلة النوع الأول ما كتبه ردا على بعض معارضيه فى مسألة الرسم العثمانى للمصحف ، وقد مر بك تفصيل هذا الموضوع :

« صاحب الأهرام الغراء

دار فى هذه الأيام كلام طويل فى شأن رسم المصاحف الشريفة بين « وادى النيل » و « الأهالى » و « الأفكار » و « الأخبار » أثار عجاجه الأستاذ الفاضل الشيخ ..... من علماء معهد ... (١) غيرة على الدين ، وحرصا على القرآن أن تعبث به أيدى العابثين ، وهى حفيظة يحمد عليها وغضب يستحق عليه الرضا ، والظاهر أنه جاءه فاسق بنبأ ، فلم يتبين ، فأصابنى ووزارة المعارف بجهالة ، وشنها على وعلى اخوانى غارة شعواء ، وقلب محاسننا اللاتى تدل بها ذنوبا ، سامحه الله ، وكفاه شر العجلة ، فاسمحوا لى أن أسرد الحقيقة فى صحيفتكم ، ليعلم الناس أنا لم نجىء شيئا نكرا ... الخ »

ومن أمثلة النوع الثانى ما كتبه منددا فيه بيحيى السلاوى الذى سبقت الاشارة اليه ، قال :

« والله والله مرتين لحفر بئر بابرتين
وكنس أرض الحجاز طرا فى يوم ريح بريشتين

---

(١) علمت من الاستاذ الكبير سعد اللبان وزير المعارف السابق فى أثناء حديثه معه أن المعنى بهذه المقالة هو والده : فضيلة الشيخ عبد المجيد اللبان وكان اذ ذاك مدرسا بمعهد الاسكندرية .

لأهون على الانسان ، وأخف ثقلا فى الأوزان من رؤية جاهل يتعالم ، وسماع حديث غبى يتذاكى ، ومشاهدة ثقيل يتخفف ، وفى وجود مثله يجمل الكلام ببطلان حركة الأرض ، ويستحسن جواز التناسخ . وعدنا فى العدد الماضى أن نسلق بلسان البيان رجلا معروف الاسم مجهول المكان ، كالحبقة تسمع ولا ترى ... الخ »

٦ ــ مقاماته :

لحفنى عدة مقامات حذا فيها حذو الحريرى والهمذانى فى الصياغة والنسج ، ويظهر أن التنافس فى محاكاة المقامات كان على أشده فى ذلك العهد ، فقد خاض هذا الغمار كثير من أدبائه ، وممن اشتهر منهم المويلحى فى كتابه « حديث عيسى ابن هشام » وحافظ فى كتابه « ليالى سطيح » وقد اتخذ كل منهم لكتابه بطلا ، أما بطل حفنى فهو جهينة ، وأما راويته فهو ادريس محمدين الذى استخدمه فى توقيع بعض المقالات باسمه. ويكاد يكون موضوع المقامات عند الأدباء الثلاثة واحدا : وهو نقد المجتمع المصرى ، وما أصابه من انحلال بدخول الاحتلال ، ويزيد حفنى على ذلك التغنى بأمجاد مصر ، والاشادة بنيلها ، وخصوبة أرضها ، وهو حين يعرض لنقد عيوبها وتقاليدها البالية يتكلم كلام الخبير الذى احتك بكل هيئاتها ، وتغلغل فى صميم بيئاتها . استمع اليه وهو يندد « بالحشيش » وغيره من المخدرات التى لم تكن محظورة فى هذا الزمان ، كما هى محظورة الآن.

يقول ادريس على لسان جهينة فى بعض هـذه المقـامات :
« وبينما أنا أجول فى المدينة ، أشاهد هذه الزينة ، اذ سـمعت قوما يصخبون . وطورا يستخفهم الطرب فيصـفقون ، فوليت وجهى شطر ذاك المنتدى ، لعلى أجد على النار هدى ، وحسبتهم علماء عقدوا مجلسا للمناظرة ، أو سياسـيين دارت بينهم رحى المذاكرة ، أو عقلاء احتفظوا بخطيب ، أو التقوا على مشـاهدة غريب ، اذا بهم جماعة من الدراويش ، يرصدون كواكب الجوزاء فى برج الحشيش ، يتلقفون الأنابيب ، ويتفننون فى الضحك على أساليب ، ويدخلون القوافى من أبوابها المألوفة ، ويلعبـون الصينية (١) حين تقف ظروفها المصفوفة ، فقلت : « أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون » ولمثـل هـذه الجـوزاء تجتمعون ؟ فالتفت الى صاحب المنتدى ، وارتجل منشدا :

لا يقدر الأسرار حق قدرها   فى النـاس الا عالم بأمرها
أنفاسها تطوى الأسى بنشرها   والأوليـا بأسرهم فى أسرها
والشعرا تعلقوا فى شعرها   فالبحترى حار فى ديجـورها

والمتنبى هام فى كافورها

ثم أدركه السعال ، فقطع الكلام ، فحوقلت ، وانطلقت الى أمام »

---

(١) هى لعبة معروفة فى الأوسـاط البلدية : يؤتى بصينيـة ، ثم تكفأ فوقها الفناجين ويوضع تحت احدها خاتم ، ويطالب أحد الموجودين باستخراجه .

وفى مثل هذا الأسلوب الفكه ، والسجع الذى لا تكلف فيه يسترسل حفنى فى مقامته هذه ، فينتقل من الحشيش الى الخمر ، ثم الى النساء ، والعجيب أن ذلك كله فى ليلة من ليالى رمضان : الأمر الذى يجعل جهينة فى آخر المقامة يقول : « ثم آليت ألا أجتمع فى النهار بأحد ، مادمت حلا بهذا البلد »

ولحفنى مقامة ثانية يتناول فيها وصف القلعة ومسجدها ، ثم ينعى فيها على الاحتلال وجنوده ، ثم يندد بانتشار داء الرمد فى مصر ، ثم ينتقد الطرق وعدم تعبيدها الى آخر ما تناول من هذه العيوب والآفات .

وفى مقامة ثالثة يقارن جهينة حين يمر بحديقة الأزبكية بين احتفالات الفرنسيين بعيد الحرية واحتفالات المصريين بأعيادهم ، ففى الأولى طرب ومسرات ، وفى الثانية شعوذة وخرافات .

وفى مقامة رابعة يستصحب أدريس جهينة فى زيارة لجامع عمرو بن العاص ، وهناك يبدى الثانى دهشته مما يرى من خرافات ، وراء كل منها قصة مأثورة ، فيضحك حتى يبدو ناجذاه ، ويخاطب المصريين على طريقة أبى الفتح الاسكندرى ، أو أبى زيد السروجى قائلا :

حتام يأهل مصر	تصدقون المحالا ؟
وتغفلون هداكم	وتؤثرون الضلالا ؟

النـاس ســاروا يمينــا　　من حيث سرتم شـــمالا
طاروا سراعا لمجـــد　　يغشى وأنتم كســالى
الام انتم صــــغار　　متى أراكم رجـــالا ؟
لا تيئســوا من فلاح　　فالبــدر كان هــلالا
أما اذا ما اتخـــذتم　　هــذا الضـــلال مجـالا
فللجمـــادات خـــير　　منـــكم وأحســن حالا

٧ ــ خطبه :

لا يقنع حفنى بأن يكون شاعرا وكاتبا ، بل يأبى الا أن يكون خطيبا أيضا ، وخطبه المأثورة فى ديوان رسـائله يبـدو عليهـا طابع الاعداد لا الارتجـال ، ويدور معظمــها حول الأغراض التعليمية : من خطبة يلقيها فى افتتاح مدرسة ، أو عنـد عقـد امتحان من الامتحانات ، أو عند تقديم أبحـاث زملائه فى دار العلوم اذ كان طالبا بها ، أو فى مزايا تعليم البنات . ويلاحظ أنه فى كل خطبة تقريبا حريص على ما يسميه البـلاغيون « براعـة الاستهلال » فتراه يذكر فى استهلال الخطبة ما يشعر السـامع بموضوعها . وخطبه ــ كسائر رسائله ــ تدل على تمـكنه من ناصية اللغة ، كما تدل على سعة آفاق ، وعلى أنه كعهدنا به دائما تقدمى يجارى عصره ، أو يسبقه بعشرات السنين : يتجلى ذلك فى خطبته عن الربا وتعليم البنات وغيرهما من الموضوعات .

الرسالة البكرية

« اذا كانت ضرورة الاختصار قد ألجأتنا فى كثير من الأحيان الى تقطيع أوصال ما نستشهد به من نثر حفنى ناصف فلابد لنامن تسجيل أثر متكامل العناصر من انتاجه النثرى ، وليست الرسالة البكرية خير هذا الانتاج ، ولكنها لظروف خاصة سارت على الأفواه مسير الأمثال ، حتى قل من لا يحفظها من المتأدبين فى العصر الحديث .

أما تلك الظروف فتتلخص — فى نظرنا — فى شخصية المرسل أولا ، وشخصية المرسل اليه ثانيا ، وسبب انشائها ثالثا ، وهو الغضبة للكرامة ، تلك الغضبة المضرية ، ثم صدورها عن انفعال نفسى ، وحرارة عاطفية تبلغ درجة الغليان ، وأخيرا احكام أسلوبها احكاما كفل لها الخلود .

سبب انشائها :

كانت تربط بين حفنى ناصف والسيد توفيق البكرى روابط صداقة وثق الأدب عراها ، وكان بيت الثانى منتدى لطوائف مختلفة من أهل العلم والأدب والتصوف ، وقد زاره حفنى فى

ليلة من ليالى رمضان ، فلم يلق لديه من الحفاوة به ما ينتظره مثله من مثله ، فثار لكرامته ، وأفرغ ثورته فى هذه الرسالة الرائعة ، بل القنبلة المتفجرة ، بل الذرة المحطمة .

نص الرسالة :

« كتابى الى السيد الأجل ، ولا أجشمه الجواب عنه ، فذلك مالا انتظره منه . وانما أسأله أن ينشط الى قراءته ، ويتنزل الى مطالعته ، وله الرأى بعد ذلك أن يحاسب نفسه ، أو يزكيها ويحكم عليها أولها .

فقد تنفع الذكرى اذا جاء هجرهم
دلالا فاما ان ملالا فلا نفعا

زرت السيد ، ويعلم الله أن شوقى الى لقائه كحرصى على بقائه ، وكلفى بشهوده كشغفى بوجوده ، فقد بعد والله عهد هذا التلاق ، وطال أمد الفراق ، وتصرم الزمان ، وأنا من رؤيته فى حرمان ، فسألت عنه ، فقيل لى : انه خرج لتشييع زائر ، وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طلوعه ، ولم أزل أعد اللحظات ، وأستطيل الأوقات ، حتى بزغت الأنوار ، وارتج صحن الدار ، وظهر الاستبشار على وجوه الزوار ، وجاء السيد فى موكبه ، وجلالة محتده ومنصبه ، فقمنا لاستقباله ، وهينمنا بكماله ، فمر يتعرف وجوه القوم ، حتى حاذانى ، وكبر على عينيه أن يرانى ، فغادرنى ومن على يسارى ، وأخذ فى السلام على جارى ، وجر السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا

في هذه الحال أوهم جاري أنني في داري ، وأظهر للنـاس أنا شدة الألفة تسقط الكلفة ، ومر السيد من أمامي بعد ذلك ثلاث مرات ، ومن الغريب أنه لم يتدارك ما فات ، وأغرب من ذلك أنه استخلص لنفسه أربعة ، ودعاهم الى الحجرة ، فدخلوا معه ، فلم يبق الا القيام ، والامساك عن الكلام .

تمرون الديار ولن تعـوجوا . كلامكمـــو علىّ اذن حرام

وكنت أظن مكانتي عند السيد لا تنكر ، وأن عهدى لـديه لا يخفر ، فاذا أنالست فى العير ولا فى النفير ، وغيرى عند السيد كثير ، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير .

ومن مدت العليا اليه يمينها فأكبـر انسان لديه صـغير

ولا أدعى أني أوازى السيد ـ صانه الله ـ فى علو حسبه ، أو أدانيه فى علمه وأدبه ، أو أقاربه فى مناصـبه ورتبـه ، أو أكاثره فى فضته وذهبه ، وانما أقول : ينبغى للسيد أن يميز بين من يزوره لسماع الأغانى والأذكار ، وشهود الأوانى على مائدة الافطار ، وبين من يزوره للسلام ، وتأييد جامعة الاسلام ، وأن يفرق بين من يتردد عليه استخلاصا للخلاص ، ومن يتردد عليه اجابة لدعوة الاخلاص ، وألا يشتبه عليه طلاب الفوائد بطلاب العوائد ، وقناص الشوارد بنقباء الموالد ، ورواد الطرف بأرباب الحرف ،

فما كل من لاقيت صاحب حاجة ولا كل من قابلت سائلك العرفا

فان حسن عند السيد أن يغضى عن بعض الأجناس فلايحسن أن يغضى عن جميع الناس ، والا فلماذا يطوف على بعض الضيوف ويحييهم بصنوف من المعـــروف ، ويتخطى الرقاب لصروف ، ويخترق لأجله الصفوف ، فان زعم السـيد أنه أدرى بتصريف الأقلام فليس بأقدم هجرة فى الاسلام ، وان رأى أنه أقدر منى على اطرائه فليس بممكن أن يتخذه من أوليائه .

ولا أروم بحمـــــد الله منزلـــة
غـــيرى أحق بها منى اذا رامـــا

وانما أصون نفسى عن المهانة والضعة ولا أعرضها للضـــيق وفى الدنيا ســعة :

وأكرم نفسى اننى ان أهنتهـــــا
وحقك لم تكرم على أحد بعدى

فلا يصعر السيد من خده ، فقد رضيت بما ألزمنى من بعده ، ولا يغض من عينه ، فهذا فراق بينى وبينه ، وليتخذنى صاحبا من بعيد ، لا يكلمنى الى يوم الوعيد

كلانا غنى عن أخيـــه حيـــاته ونحن اذ متنا أشـــد تغانيـــا

ومنى عليه السلام على الدوام ، ومبـــارك اذا ليس جديدا ، وكل عيد وهو بخير اذ استقبل عيـــدا ، ومرحى اذا أصـــاب ، وشيعته سلامة اذا غاب ، وقـــدوما مبـــاركا اذا آب ، وبالرفاء والبنين اذا أعرس ، وبالطالع المسعود اذا أنجب ، ورحمه الله اذا

عطس ، ونوم العافية اذا نعس ، وصح نومه اذا استيقظ ،وهنيئا اذا شرب ، وما شاء الله اذا ركب ، ونعم صباحه اذا انفجر الفجر ، وسعد مساؤه اذا أذن العصر ، وبخ بخ اذا نثر ، ولا فض فوه اذا شعر ، وأجاد وأفاد اذا خطب ، وأطرب وأغرب اذا كتب ، واذا حج البيت فحجا مبرورا ، واذا شيع جنازتي فسعيا مشكورا » .

الى هنا تنتهي هذه الرسالة ، وقبل أن تتناولها بالتعليق ينبغي أن نبين من هو غريم حفني في هذه الخصومة ؟.

أما غريم حفني في هذه الخصومة فهو رجل ينحدر من أعرق الأسر المصرية حسبا ، وأكرمها نسبا ، هذه الأسرة تتوارث منصب نقابة الطرق الصوفية كابرا عن كابر ، وقد آلت الى هذا الغريم في عهد الخصومة بينه وبين حفني ، ونقابة الطرق الصوفية اذ ذاك لا نبالغ اذاقلنا : انها كانت عرشا آخر يتبوؤه خلفاء السادة البكرية ، بجوار العرش الذي يتعاقب عليه أفراد الأسرة العلوية ،

ولم يكن السيد توفيق البكري يستمد مجده فقط من مجده وحسبه ، أو فضته وذهبه ، أو مناصبه ورتبه ، بل كان يضيف الى ذلك مجدا مكسوبا من علمه وأدبه ، فهو الكاتب الشاعر الخطيب ، كما أشار حفني في ختام رسالته الى هذه الأمجاد . وتوفيق البكري هو صاحب كتاب « صهاريج اللؤلؤ » وهو رئيس أول جمعية لغوية ألفت للغرض الذي يقوم المجمع اللغوي من أجله

الآن ، وقد كانت له بمثابة النواة . وبالجملة فالسيد توفيق البكرى ممن يصدق عليهم قول الشاعر :

وانى وان كنت ابن سيد عامر وفارسها المشهور فى كل موكب
فما سودتنى عامر عن وراثة أبى الله أن أسمو بأم ولا أب
ولكننى احمى حماها وأتقى أذاها وأرمى من رماها بمنكبى

بعد هذا لا نعجب كثيرا اذا رأينا علما من أعلام الأدب والقضاء كحفنى ناصف يسعى الى منزله زائرا ، و لانعجب كثيرا اذا وجدنا هذا المزور يغضى ـ ساهيا أو عامدا ـ عن حفنى ناصف ، وانما العجب كل العجب فى ألا يغتفر حفنى هذه الهناة ـ ولا نقول الاهانة ـ لرجل جليل المقدار كثير الزوار كالسيد توفيق البكرى ، بل يقذف به من حالق، ويضرب بصداقته عرض الحائط والمتتبع لهذا الخطاب يجد أن كاتبه تتنازعه عاطفتان بالنسبة لهذا الصديق : احداهما استبقاؤه حرصا على صداقته ، وثانيتهما نبذه استثآرا لكرامته ، فبينما هو يلطف الى أبعد حدود اللطف ، اذا هو يعنف أقوى ما يكون العنف .

وهو فى الخطاب يعترف ـ حقيقة كان اعترافه أو تواضعا ـ بما بينهما من فارق اجتماعى ، لذلك يكتفى بأن ينشط السيد لقراءة الخطاب ، ولا ينتظر أن يتنازل بالرد ، كما يعترف بأنه لا يدانيه فى حسبه أو يكاثره فى فضته وذهبه ، أو يباريه فى أدبه ، وان كانت الأخيرة من باب التواضع قطعا .

وهو لا يبدأ فى العتاب الا بعد أن يثبت التقصير بكل وسائل الاثبات ، ويضيق على المقصر الخناق ، حتى لا يجد سبيلا الى الانكار ، فقد حاذاه ، وكبر عليه أن يراه ، ومر بعد ذلك أمامه ثلاث مرات ، ولم يستدرك ما فات ، وهنا من دقة الوصف ماينقل القارىء الى بيت البكرى بالخرنفش ، ويجعله يرى رأى العين جلوس الزوار على الأرائك فى صحن الدار ، ويشعر بكل حركة ظاهرة أو خفية أشار اليها الخطاب ، كما تتجلى هـــذه الدقة فى وصف شعوره نحو هذا الاهمال ، ومبلغ خجله من جيرانه الذين يعرفون علو مكانه ، وكيف كان يسوءه عليهم بأن رب البيت يعتبره فردا من آهله ، ولا كلفة مع شدة الألفة .

ويبلغ العنف أشده حين يطعنه فى موضع عزته ، ونعنى به منصبه كنقيب لرجال الطرق ، فيقول له : من هم زوارك الذين تشاغلت عنى بهم ؟ أليسوا نقباء الموالد ، وأربـــاب العـــوائد ، ومحترفى حلقات الأذكار ، حبا فى موائد الافطار . ولكنه يجـــد بين هؤلاء الزوار الصحفى المعروف يعقوب صروف ، وهو ليس بالرفاعى أو البيومى ، ويجد البكرى حفيا به دونه ، فيطعنه فى موطن القوة أيضا بسلاح آخر حين يقول له : ما احتفاؤك بهذا ، وأنت رجل دين قبل كل شىء ، وهو من دين يخالف دينك ؟ ثم يوجه اليه طعنة ثالثة نجلاء حين يتهمه بأنه ما تشاغل بصروف الا بغية أن ينوه باسمه ، ويشيد بأدبه فى صحيفته .

ويصل العنف الى الذروة حين يأمره ألا يصعر خـده ، وأن يلزم حده ، ويعلنه بالقطيعة التى تمتد بامتداد الحياة ، ويبقى أثرها بعد الوفاة .

وفى الختام يرى أنه تجاوز الحد فى العنف ، فيحييه ـ ولكن من بعيد ـ بكل أنواع التحيات التى يحيا بها فى مختلف المناسبات ، وكما بدأ الخطاب بذكر الحرص على بقائه يختمه بمثل ذلك الحرص حين يشكر سعيه لتشييع جنازته ، ومعنى ذلك أنه يتمنى الموت قبله .

أما سجع هذا الخطاب فانه لخفته ، ووصوله من الآذان الى القلوب بغير استئذان يعتبر حجة بالغة يدلى بها أنصار السجع على علو منزلته بين أساليب الكلام .

حفني باحثا ومؤلفا

١ ـ مؤلفات حفني على وجه الاجمال :

يكاد حفني في هذا الباب يكون رجلا آخر غير الذي عرفته شاعرا أو كاتبا ، فهو هنا يمثل شخصية العالم المحقق الذي يلتزم جانب المنطق ، ويخلص من المقدمات الى النتائج . غير أنه مما يؤسف له أن معظم آثاره العلمية لم تر النور ، لأنها لم تطبع ، أو عبثت بها يد الضياع ، وفي ذلك يقول الشيخ الاسكندري : « وأكثر مؤلفاته لم تطبع ، وبعضها ضاع أثناء تفتيش أوراق أولاده بعد وفاته في الفتن الأخيرة » أما ما وقفنا عليه من مؤلفاته فهو ما يلي :

١ ـ مميزات لغات العرب ، وتخريج اللغات العامية عليها ، وفائدة علم التاريخ من ذلك .

٢ ـ الأسماء العربية لمحدثات الحضارة والمدنية

٣ ـ بحثه في الربا .

٤ ـ بحثه في هوية مارية القبطية .

٥ ـ الأدب العربي ، أو حياة اللغة العربية .

٦ ــ كتب النحو والبلاغة للمدارس : ألفهـا بالاشـتراك مع آخرين .

٧ ــ القطار السريع فى علم البديع .

٨ ــ رسالة فى المنطق .

٩ ــ رسالة فى علمى العروض والقوافى .

١٠ــ مجموعة شعر حفنى ناصف .

١١ــ مجموعة نثر حفنى ناصف .

١٢ــ رسالة فى البحث والمناظرة .

١٣ــ رسالة فى الهجرة النبوية .

١٤ــ كتاب الانشاء القضائى .

١٥ــ كتاب الأمثال العرفية فى الديار المصرية .

١٦ــ رسالة فى غريب لغة الصعيد .

١٧ــ رسالة فى التدبير المنزلى .

١٨ــ رسالة فى الكهرباء .

١٩ــ رسالة فى التوحيد .

٢٠ــ رسالة عن بعض رجالات مصر .

٢١ــ قواعد رسم المصحف العثمانى : ألفـه بالاشـتراك مع آخرين .

٢٢ــ رسالة فى علم الأصول.

٢٣ــ رسالة في بديع اللغة العامية .

٢٤ــ رسالة فى عامية لغة أهل الشام .

٢٥ــ رحلة الى الآستانة .

ونستطيع أن نقول على وجه التقريب : ان الشطر الأول من هذه المؤلفات الى رقم ١١ أما مطبوع أوله مراجع يرجع فيها اليه بخلاف باقى هذه المؤلفات . وفيما يلى تفضيل الكلام نوعا ما عن بعض هذه المؤلفات .

٢ ــ بحثه فى مميزات لغة العرب :

لهذا البحث أهمية خاصة ؛ فقد تقدم حفنى به الى مؤتمر « فينا » سنة ١٨٨٦ حينما أوفد الى هذا المؤتمر فى بعثة يرأسها « يعقوب أرتين » ونظرا لجدة هذا البحث ، وجريه على مناهج البحث الحديثة قرر المؤتمر طبعه ، وتعميم الانتفاع به . وأول ما لفت نظر حفنى الى هذا البحث ما لحظه من الفروق بين لغتى أهل مديريتى المنيا وبنى سويف ــ على تجاورهما ــ فقد لاحظ أن أهل المديرية الثانية ينطقون القاف مشوبة بالكاف ، على حين ينطقها أهل المديرية الأولى قافا خالصة ، ومن هنا استنتج أن الخلاف لم يأت عفوا ، وانما هو ميراث انتقل من السلف الى الخلف من أيام الفتح العربى . ولما كانت قريش تنطق القاف

خالصة ، وغيرها من القبائل ينطقها مشوبة بالكاف فقد رجح حفنى أن أهل المنيا تحدروا من أصلاب القرشين ، وأن أهل بنى سويف من سلالة غيرهم . وجريا على هذا القياس يسترسل حفنى فى استنتاجه ، فينسب الى قريش — اما بالنسب واما بالولاء واما بالمخالطة — كل من ينطق القاف خالصة : كسكان مديرية الفيوم ، وبعض أهل الجيزة،وأهل أبيار ورشيد،وغيرهم. وينسب الى غير قريش كل من ينطق القاف غير صريحة : كبعض مديريات الصعيد ومديريتى المنوفية والبحيرة والشرقية ، وجميع سكان بوادى مصر .

ويؤيد حفنى نظريته هذه بظاهرة اقتصادية سياسية:خلاصتها أن السطوة والغلبة كانتا لقريش ،فكان من الطبيعى أن يستأثروا عقب الفتح بالمواقع الخصبة ، ويتركوا سواها لسواهم من القبائل ، وبتتبع نطق القاف وخصوبة الأرض نجد الخصوبة تقترن بالقاف الصريحة فى العصر الحاضر ، والعكس صحيح .

هذا هو أساس البحث ، وقد فرع حفنى عليه عدة تفريعات ، ودخل فى تفصيلات لا يتسع المقام لاستيعابها . على أن الدكتور محمد خلف الله يعلق على هذا البحث بأنه ليس من الضرورى فى بحث كهذا أن تكون كل فروضه ونتائجه موضع اتفاق ، وليس مما يقلل من شأنه أن تكون فيه نواح تثير نقاشا ، فاللغة تخضع لعوامل كثيرة كالهجرة والاختلاط وتمازج الأنساب ، ثم ان

تحديد خواص النطق عند قبائل شبه جزيرة العرب قبل الاسلام تحديد تقريبى لا يؤخذ على جهة اليقين .

ومع اعترافنا نحن بجدة البحث وطرافته فاننا نميل الى رأى الدكتور خلف الله فيما أبداه من التشكك حوله ، وقد رجعنا الى كتاب البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب للمقريزى كى تتحقق من صدق هذه النظرية فبدا لنا غير قليل من وجوه الاختلاف .

٣ ـ بحثه فى الكلمات الحضارية :

لحفنى ناصف بحث قيم يتعلق بالأسماء العربية لمصطلحات الحضارة والمدنية ، وليس أمر هذه المصطلحات وليد عصرحفنى، ولكنه أخذ عدة مراحل ربما امتد بعضها الى أزمان سحيقة منذ كانت العربية تستمد بعض كلماتها من الفارسية وغيرها . بيد أن اللغة العربية فى عصر النهضة الحديثة استهدفت لسيل جارف من العلوم المستوردة ، ومظاهر الحضارة الأوربية ، ومن هنا كان على العربية أن تتفاعل مع غيرها من اللغات تفاعلا بعيد المدى ، والا ظلت فى عزلة لا تحمد مغبتها وكان من الطبيعى أن ينقسم العلماء فريقين فيما يتعلق بقبول التعريب ، فأحد الفريقين ينادى بسياسة الباب المفتوح ، وحجته أن الوقت من ذهب ، وأن اللغة العربية لغة البداوة ، فيجب أن ننقل الألفاظ الأعجمية كما هى . أما الفريق الثانى فينادى بوضع مصطلحات عربية بدل المصطلحات

الأجنبية ، وحجته فى ذلك أن اللغة العربية واسعة الثراء ،وسعت كتاب الله وما تضمنه من آيات ، فكيف تضيق عن وصف الآلات ، « وتنسيق أسماء لمخترعات » ؟ وقد استمر الجدل بين الفريقين ، فكان من الطبيعى أن يتردد صدى هـذا الجـدل فى نادى دار العلوم الذى يرأسه حفنى ناصف . وفعلا عقد النادى لهذاالغرض اجتماعا عاما تعاور المنبر فيه عدد من أقطاب اللغة ، وكان مسك الختام هو البحث الذى ألقاه حفنى ناصف فى هذا الموضوع فى مساء الخميس ٢٠ فبراير سنة ١٩٠٨ .

ألم حفنى بالموضوع من أطرافه ، وذكر عهود تطوير اللغة من العصر الجاهلى الى العصر الحـديث ، ثم ذكر حجج كل من الفريقين المتعارضين ، وضيق مسافة الخلف بينهما ، حتى حصرها فى اسم الجنس فقط . وفى ذلك يقول ما مؤداه : « ان الكلمة العربية اسم وفعل وحرف ، وليس الأخيران موضـع خلاف ، والاسم اما مشتق أو جامد ، والمشتقات فى العربيـة كافيـة ، والجامد اما اسم معنى أو اسم ذات ، وأسماء المعانى كثـيرة فى العربية ، واذن ينحصر الخلاف فى اسم الذات ، وقسم اسم الذات أيضا الى قسمين : ما وضع لمعين كالضمير واسم الاشارة والعلم ، وهذه لا صعوبة فيها ، وما وضع لغير معين : وهو اسم الجنس ، وفيه وحده ينحصر الخـلاف ، ثم قسم اسم الجنس نفسـه الى قسمين : ما وضعت له العرب لفظا خاصا أو اسـتعارته ، وما لم تضع له لفظا عربيا أو مستعارا ، فالأول يقبل كما هو ، أما الثانى

فينظر فيه ، فان كان المولدون قد اصطلحوا على اطلاق لفظ عربى عليه فلا خلاف فى قبوله ، وان لم يكونوا فعلوا ذلك فهذا هو محل النظر ، والمنهج السليم ـ كما يراه حفنى ـ فى هذا الاشكال هو اتباع ما يلى :

١ ـ يجب التنقيب فى كتب اللغة عن لفظ عربى يمكن اطلاقه عليه بأية مناسبة من المناسبات الجائزة فى اللغة ، ويصطلح على دلالته عليه كما اصطلح من قبلنا على لفظ « نسافة وغواصة » .

٢ ـ فى المدة التى يبحث فيها يملأ الفراغ بلفظ أعجمى ، ويستعمل مؤقتا للضرورة .

٣ ـ اذا انقضى دور البحث ولم يعثر على كلمة عربية يمكن الاصطلاح عليها ـ وهو لا يحصل الا نادرا ـ تصقل الكلمة الأعجمية ، وتستعمل .

هذا هو ملخص بحث حفنى فى هذا الموضوع ، ولعل هذا البحث وأمثاله كان النواة الأولى لانشاء المجامع اللغوية .

٤ ـ بحثه فى مارية القبطية :

أما هذا البحث فقد عثرنا عليه فى عدد من مجلة الهلال يحمل اسم (جزء ١ سنة ٤١) بتاريخ سنة ١٩٣٢ أى بعد وفاة حفنى بنحو ١٣ عاما .

وقد بدأ حفنى بحثه بالحمد لله، والصلاة على رسوله الكريم،

ثم بين كيف كان اختلاف النــاس فى حركة الحــرف الأول من اسمه ــ من فتح الى كسر الى ضم ــ حين ينادونه به سببا فى البحث عن ماهية هــذا الاسم ، والى أى بلد ينسب ؟ ومازال يستشير المعــاجم ، ويســتعرض المــراجع ، حتى وجــد فى معجم البــلدان ليــاقوت مانصــه : « حفن ــ بفتح الحــاء ــ ناحية من نواحى مصر ، وفى الحــديث : «أهدى المقوقس الى النبى صلى الله عليه وسلم جارية من حفن من رستاق أنصنا » وحينئذ وجه حفنى دفة البحث من حفن الى أنضنا حتى وجد فى كتاب « الانتصار لابن دقماق » ما يشفى غلته ، اذ وجد ما نصه « وأنصنا بلدة قديمة بها آثار عظيمة ، وكان بها مقيــاس صغير يقاس به ماء النيل ، وبعضه باق الى اليوم ، وهى على الضــــفة الشرقية قبالة الأشمونين » وقد انشرح صدر حفنى لهذا النص وجعل يوالى البحث فى الكتب تارة وفى المصورات الجغرافيــة تارة أخرى ، ولم يكتف بذلك ، بل سافر بنفسه الى الاشــمونين ودرس تلك المعالم درس العالم المنقب ، حتى انتهى الى معلومات قيمةتتعلق بالسحرة الذين جلبهمفرعون لموسى عليهالسلام ،وبمعبد « انثبــــويه » ومسجد عبادة بن الصامت ، وغير ذلك من الآثار. ولكن أهم ما وصل اليه هو ماهية مارية القبطية زوج الرســول الكريم وأم ابنه ابراهيم ، وفصل الكلام عليها تفصيلا ، ثم أنهى بحثه بتفصيل الهدايا التى بعثها المقوقس الى الرسول على نحــو ما يلى :

١ ــ مارية بنت شمعون ، وكانت أمها رومية .

٢ ــ جارية أخرى يقال لها « سيرين » ولكنها أقل جمالا من مارية .

٣ ــ جارية ثالثة يقال لها « قيسر » .

٤ ــ جارية سوداء يقال لها « بربرة »

٥ ــ غلام أسود يقال له « هابو »

٦ ــ بغلة شهباء هى التى أطلق عليها اسم «دلدل »

٧ ــ فرس مسرج ملجم هو الذى أطلق عليه اسم «مبسون »

٨ ــ حمار أشهب هو الذى أطلق عليه اسم « يعفور »

٩ ــ حقيبة فيها مكحلة ومرآة ومشط وقارورة دهن ومقص وسواك .

١٠ ــ جانب من عسل بنها ، وقد أعجب الرسول به ، ودعا لبنها بالبركة .

١١ ــ الف مثقال من الذهب .

١٢ ــ عشرون ثوبا من قباطى مصر .

١٣ ــ جانب من العود والند والمسك .

١٤ ــ قدح من قوارير

وقد اختتم حفنى بحثه بملحوظة تتعلق بالرق وتتلخص فى أن الرق لم يكن عند المصريين والرومانيين مقيدا بالقيود التى قيده

بها الاسلام ، بل كان أمره واسع النطاق ، فكما يحصل بالأسر في الحرب يحصل بالاختطاف ، وتقريره من جانب الحكومة على غير الأشراف ، وبعجز المدين عن أداء دينه ، وبسلطة الملوك على الرعايا بقيود معروفة فى تاريخ القدماء من المصريين والرومان .

٥ ـ رأيه فى الربا :

موضوع الربا موضوع واسع شغل الفقهاء والمصلحين قديما وحديثا ، وطال الأخذ والرد فيه بين التقدميين والمتزمتين ، وقد أدى تمسك الفريق الثاني ـ منذ كانت له السيطرة ـ بحرفية النصوص الواردة فى الربا الى أن حرمت مصر الى عهد قريب من انشاء بنك وطنى يتولى تصريف الأمور المالية فيها ، وترك ذلك للأجانب الذين استنزفوا الدماء ، ولم يبقوا على عقار أو منقول وقد هال هذا الأمر المصلحين فى ذلك العهد ، وكان ممن عنى ببحث هذا الموضوع أيضا نادى دار العلوم الذى يرأسه حفنى ناصف . وقد عقد لذلك جلسة خاصة تكلم فيها الشيخ عبدالعزيز جاويش ومحمد بك الخضرى والشيخ عبد الوهاب النجار والشيخ محمد رشيد رضا وغيرهم ، وكانت الكلمة الأخيرة لحفنى .

وفى هذه الكلمة تبدو شخصية حفنى التقدمى الواسع الأفق الذى لايقف التمسك بالنصوص الحرفية أمامه عقبة فى سبيل الاصلاح والتمشى مع ظروف العصر الحديث ومقتضياته ، وهو فى ذلك يقول مانصه : « لست أخشى اعتراض الذين يبيحون

السلم المخرب للقرى ، والغاروقة الذاهبة بالعقار ، ويتعوذون بالله من الاقراض بفائدة معتدلة ، ولا يتعوذون من الاقراض بفائدة فاحشة ، وانما أخشى الذين يرمون دين الاسلام بالجمـــود ، ويصمونه بمضادة العمران ، مع أنه صالح لكل زمان ومكان »
ويمضى حفنى فى بحثه بحثا مستقرئا مســـتوعبا لأنواع الربا وأحكامها فى مختلف المذاهب ، وأقوال الفقهاء فى ذلك ، حتى لتشعر أنك أمام امام من أئمة الفقه والاقتصاد ، ثم يكون صريحا وشجاعا الى أبعد حدود الصراحة والشـــجاعة حين يصرح بأن الاقراض بفائدة ليس من أنواع الربا المحرم ، ثم يجرح الحديث المأثور : « كل قرض جر نفعا فهو حرام » ويدعو الى عدم الأخذ به ، لأن فى رجاله متروكا ، كما قال أئمة التعديل والتجريح ، ولذلك قال بعضهم : « انه بكلام المناطقة أشبه منه بكلام النبوة» ثم ينتهى حفنى من بحثه بتذكير المصريين بملايين الجنيهات التى تتدفق سنويا من خزائن الحكومة وجيوب الأهالى الى جيـوب الأجانب فى صفة فوائد ، مشيرا الى أن هذا من أقوى أسـباب قوتهم وضعفنا ، مقررا أن الحرب فى ميادين القتال أهون خطرا من الحرب فى ميادين المـال .

٦ ـ كتب النحو والبلاغة :

وضع حفنى بالاشتراك مع آخرين بتكليف من وزارة المعارف كتبا خمسة فى النحو والبلاغة كان لها الفضل فى تثقيف الجيل

الماضى . وقد خلف هذه الكتب كتب شتى لم يكتب لها البقـاء، اللهم الا كتب النحو الواضح والبلاغة الواضحة للأسـتاذين على الجارم ومصطفى أمين التى استمرت فترة طويلة ، ولم يظهر بعدها ماهو خير منها ، ولكى تعرف فضل حفنى وزملائه يجب أن تعرف أن المراجع الوحيدة لعلوم النحو والبلاغة الى ذلك العهد كانت مقصورة على الكتب الأزهرية التى تضل الحقائق فيها بين المتون والشروح والحواشى والتقريرات ، وما يتبع ذلك من خلافات لاتقف عند غاية ، ومن هنا كانت مهمة حفنى وزملائه استيعـاب هذه الكتب وبلورة مافيها من الحقائق فى أسلوب مركز سـهل المتناول أشبه بما يتعاطاه المريض من الفيتامين فى برشام قليـل الكمية كثير المفعول ، وليس كل عالم يستطيع هذا التركيز ،فكثيرا مايكون أشق من التأليف ، كما يكون الترميم أحيـانا أشق من البناء من جديد .

وبهذه المناسبة أذكر أن « تشرشل » سئل مرة : كم يستغرق منك اعداد الخطبة التى تستغرق خمس دقائق ؟ فأجاب : يوما كاملا ، فسئل : وكم يستغرق منك اعداد خطبة تستغرق ساعتين؟ فأجاب : أستطيع أن أرتجلها لك الآن .

ولعلك لم تنس بعد ماقاله بعض رجال القضاء عن هـذه الكتب من أنها أشبة بالمواد القانونية منها بالمؤلفات العلميه .

٧ ـ كتاب تاريخ الأدب ، أو حياة اللغة العربية :

يشتمل هذا الكتاب على المحاضرات التى ألقاها حفنى عـلى طلبة الجامعة القديمة فى آداب اللغة العربية ، وقد طبعته جـامعة القاهرة أخيرا فى ثلاثة أجزاء . ومن هذا الكتاب يتضح أن جورجى زيدان لم يكن أول من ألف فى تاريخ الأدب ، كما هو مشـاع فقد كان حفنى وجورجى متعاصرين ، وقد رأينا كيف يسـتعين الثانى بالأول . والذى يلفت النظر فى الكتاب أنه بعد أن يعرض فيه لما ألف عرضه من تاريخ العرب ، وتفسير معنى الأدب وما الى ذلك يتناول موضوعات شتى لا يلتفت اليها جمهرة المؤلفين فى تاريخ الأدب من مثل حروف اللغة العربية ومسمياتها ، وتحقيق النطق بأسمائها ، والخلاف بين الكوفيين والبصريين فى نطق الهمزة ، والامالة وتقسيمها الى صغرى وكبرى ، كما يتكلم عن الحروف العربية ومخارجها وصفاتها والخلاف فى ترتيبها بين المشـارقة والمغاربة ، وعن استعمال هذه الحروف فى الحسـاب والفلك والتاريخ ، كما يتكلم عن الخط العربى من عهد عـرب الرعـاة والنبط والبابليين ، ويتعقب الأدوار التى مر بها الى اليوم ، كمـا يتكلم عن الخط المقور والـكوفى والمبسوط ، وعن الشـكل واختراعه على يد الخليل بن أحمد وما اعتوره من تطورات ، وعن الأقلام وأنواعها : القلم الطومار والثلث والثلثين .. الى آخر هذه الموضوعات التى لم يتعرض لها كثير من كتب الأدب ، وانما تجد بعضها فى كتاب كصبح الأعشى للقلقشـندى .

٨ ـ كتاب الانشاء القضائى

أشرنا عندما عرضنا لمرحلة تدريس حفنى بمدرسة الحقوق الى مادة الانشاء القضائى التى كان يقوم بتدريسها ، وبين أيدينا الآن جذاذات بالية متهالكة تتضمن ــ فيما نرجح ــ مادة كتاب الانشاء القضائى الذى وضعه حفنى ناصف على نظام مبتكر لم يسبق اليه . أما هذه الموضوعات فيربو عددها على المئات ، نذكر منها على سبيل المثال .

١ ــ تعريف الانشاء القضائى وتقسيمه الى أقسام .

٢ ــ معنى المرافعة لغة واصلاحا وتقسيم القائمين بهما الى قسمين .

٣ ــ بيان التجهيزات التى ينبغى أن تتحقق فى المرافع وتقسيمها الى قسمين .

٤ ــ المعدات النظرية التى ينبغى توفرها فى المرافع ثلاثة أمور: قوى جسدية وقوى عقلية وقوى خلقية

٥ ــ أنواع الكتابة : تلغرافات . استمارات . تعهدات . مناقضات . استفهامات : اجابات . تذاكر ادارية ..

٦ ــ أغراض الكتابة : الشكر على شىء حصل . اللوم على تقصير وقع . الحث على العمل ريث النشاط . الانذار والوعيد

التحذير من بعض الأشياء أوبعض الناس . التوصية وأنواعها . التعيينات . الرفت . اخلاء الطرف .

٧ ـ الدفاتر : دفتر السركى . الصادر . الوارد

٨ ـ التآليف العلمية . الترجمة والتبويب . الفهارس واللغات .

هذا الذى أوردناه قطرة من خضم مبثوث أمامنا فى جذاذات غير منسقة ،لايدرى لها أول من آخر ، فاذا صح أن تحت كل عنوان من هذه العناوين فصلا قائما بذاته كان معنى ذلك أن كتاب « الانشاء القضائى » الضائع أشبه بالموسوعات منه بالكتب المحدودة الأحجام .

جوانب من أخلاقه

١ ـ كلمة عامة :

« كان ذكى القلب ، خصب الذهن ، نافذ البصيرة ، حاضر البديهة ، سريع الخاطر ، ذرب اللسان ، وكان أسمح الناس طبعا وأسجحهم خلقا ، وأرجحهم حلما ، وأعذبهم روحا ، وأرقهم شمائل وكان يلقاك فتأنس الى محضره ، ويغيب عنك فتشتاق الى لقائه ... الخ »

هذا مايقوله الدكتور طه حسين فى استهلال مقال طويل يصف فيه حفنى ناصف الذى كان استاذه فى الجامعة المصرية ، ويظهر أن حفنى ناصف كان من طراز الأساتذة الذين يخلطون طلبتهم بأنفسهم ، حتى يشربوا حبهم ، ويمتزجوا بهم امتزاجا ، وآية ذلك أنك لاتجد طه حسين فريدا فى وفائه لأستاذه حفنى ، بل يكاد يكون هذا شأن كل من تتلمذ عليه ، فهذا تلميذ آخر : هو اسماعيل صدقى يقرر أن تلاميذه كانوا شديدى التعلق به ، وأنه هو شخصيا بلغ من حبه له أنه كان يجيد تقليد امضائه . وهذا تلميذ ثالث هو مصطفى كامل يثنى على أستاذه حفنى بقصيدة طويلة يقول فيها :

فاذا أردت أصـــوغ مـــدح صنـــفاته
تمـــلى عـــلى صـــفاته فأقـــول
ذو فطنـــة راقت ومـــاضى فـــكره
بوميض بـــرق بلاغـــة مصـــقول
ان هـــز سـيف يراعـــه بين الـــورى
فالجهـــل أكبر جيشـــه مفـــلول

وهذا تلميذ رابع هو محمد توفيق نسيم ينشىء قصيدة أخرى في مدحه يبدؤها بقوله متغزلا :

من لى اذا ما اســتقل الركب أو ســـارا
وعن عيـــونى أبان الجـــار والـــدارا ؟
فان تهتـــكت فى آثـــاره شـــغفا
فليس ذلـــك فى شـــرع الهـــوى عارا

ثم ينتقل الى مدحه فيقـــول :

ياكعبة العلم يامن جـــل منزلة وأظهر الفضل فى الآفاق اظهارا

كل هذه الشواهد تلقى ضوءا على علاقة حفنى بتلاميذه :تلك العلاقة التى ينبغى أن تقوم على التفاهم الروحى قبل أن تقوم على التفاهم العقلى بين الأستاذ والتلاميذ .

٢ ــ حدة ذاكرته :

تتجلى هذه الصفة فى كثرة محفوظه الذى نضح على انتاجه الأدبى شعرا ونثرا ، ويروى أحد الأدباء أنه سمع منه فصولا بأكملها

من كتاب الزهر فى اللغة ، وحدثنى الأستاذ سعد اللبان أنه رآه لأول مرة وهو يفتش مدرسة دار العلوم ، وأنه اختلف مع أستاذ الفصل الذى كان فيه فى مسألة نحوية ، فأرشد الأستاذ الى الكتاب الذى فيه المسألة ، والى مكانها من صفحاته ، فكانت كما قال .

٣ ــ مروءته :

كان حفنى يساعد من يعرف ومن لايعرف بجاهه ــ على كثرته وماله ــ على قلته ــ ومايروى عنه فى هذا الباب أكثر من أن يحصى . ومن طريف ماحدث من ذلك أنه جاءه مرة شاعر بديوان مطبوع من نظمه ، وفى صفحته الأولى قصيدة يهدى بها الديوان الى حفنى مطلعها :

لمن أشتكى حالى ولوعة ما بى
سوى حفنى بك ناصف ذى الآداب ؟

فنفحه حفنى بعشرة جنيهات على شرط أن يحول الاهداء الى شخص آخر .

٤ ــ هوايته للموسيقى :

سبقت الاشارة الى ذلك فى المقدمة ، ونضيف اليها أنه كان يجيد العزف والغناء الى درجة أن الشيخ سلامة حجازى لم يكن يبدأ بالغناء فى حفل يحضره حفنى ، بل لابد أن يسبقه حفنى الى افتتاح الحفل . ومما يروى عنه فى ذلك أنه أثناء وجوده فى

الآستانة جلس مع سعد زغلول وعلى فخرى فى مسجد السلطان أحمد ينتظرون صلاة العصر ، ولم يكن بالمسجد أحد ، فبدأ حفنى يرتل بعض الآيات ، وسرعان ماغص المسجد بالمصلين وما كاد ينتهى من القراءة حتى أوسعوا يديه لثما وتقبيلا .

٥ ــ هوايته للرياضة

قلنا : انه كان مغرما بالرياضة البدنية ونضيف الى ذلك أنه كان صيادا ماهرا يبارى أهل الريف فى صيد الطيور ، وكان يجيد لعبة « الحكشة » وهى لعبة ريفية تشبه « البوكر » وكان يعبر النيل سباحة ذهابا وايابا مستعملا ذراعا واحدة ، حاملا ثيابه بالأخرى ، ويظهر أن شغفه بالرياضة قد خلق منه مصارعا ، فقد لمحت فى شعره مايشير الى ذلك .

انى أجل لسانى عن محاورة
مع غير عارف مقدارى وأكبره
وأستعيض يدا تغنى اشارتها
فان بدا مشكل قامت تفسره

ومعنى ذلك أنه كان يستعمل العضلات ويكيل اللكمات بدل الكلمات عند المحاورة فى بعض الأحيان . على أن ثمة عقبتين كانتا تقومان فى سبيل هوايته الرياضية : السمنة والعمامة ، أما الأولى فكان يحاول التغلب عليها بالمياه المعدنية فى المصايف الأوربية وأما الثانية فقد استطاع أن يتخلص منها نهائيا بتغيير زيه ،ويتجلى

لك تبرمه بالعمامة من قوله فى خطاب له الى صـــديقه أحمـد ســـمير :

« ما أوقعنا فى هذه الغمة الا تلك العمة ، كأن الله كتب علينا ألا يرتفع من تحتها الا اذا بتَّها » .

٥ ــ شغفه بالرحلات :

يوما بحذوى ويوما بالعقيق وبالـ عذيب يوما ويوما بالخليصاء

كأنما كان قائل هذا البيت يعنى حفنى ناصف ، فهذا شأنه ، ويظهر أن الذى حبب اليه تلك الرحلات تلك البعثات التى كـان يسافر فيها الى أوربا منتدبا من جانب الحكومة فى مهمات ثقافية ونحن نعلم من هذه البعثات ثلاثا (الأولى) بعثته لحضور مؤتمر المستشرقين فى « فينا » مع الشيخ حمـزة فتح الله سنة ١٨٨٦ برياسة أرتين باشا ، وفيها قدم بحثه « مميـزات لغات العرب » (الثانية) بعثته فى سنة ١٨٩١ لحضور مؤتمر اللغات الشرقيـة بلندن برياسة الشيخ حمزة فتح الله (الثالثة) بعثته الى مؤتمـر المستشرقين فى أثينا عقب احالته على المعاش ، وفيها قدم بحثـه عن « مارية القبطية » .

والذى لاشك فيه أن هذه البعثات عقدت الصلات بينه وبين طائفة من المستشرقين ، فكان يسافر كثيرا الى أوربا لمقابلة هؤلاء ثم للاستشفاء ، ثم للتمتع بجمال الطبيعة الصامت ، وجمال الأنوثة الناطق الذى جعلنا نحكم عليه بعدم الوطنية فى نسيبه وتشبيبه .

٦ ـ شغفه بالخدمات الاجتماعية

كان حفنى نسيج وحده فى الخفة والنشاط الى هذه الخدمات حتى ليكاد يكون مضروبا مشتركا فى معظم الأندية المعروفة فى عهده ، فكان وكيلا لجمعية الاعتدال التى أنشأها أصحاب المقتطف لمحاربة الخمر ،والحث على الاعتصام بالآداب القديمة ، وأسس فى قنا ناديا علميا مدة عمله بها ، وعمل على انشاء ناد مثـله فى طنطا ، كما أسس محافل ماسونية عدة فى معظم البلاد التىاشتغل بها ، واليه يرجع الفضل فى انشاء نادى دار العلوم الذى تـولى رياسته ، فكان له فى عهده نشاط ملحوظ فى خدمة العلم واللغة

ولقد عرفت بلاء حفنى فى انشاء الجامعة المصرية ، وله بلاء لايقل عن هذا فى انشاء مجمع لغوى يقوم على أمور الفصـحى وقد تأسس هذا المجمع بفضل جهوده وجهود بعض اخوانه ،وكان مقره مبنى دار الكتب بباب الخلق ، والى هذا المجمع يشـير بالأبيات التالية فى رثاء الشيخ حمزة الذى ذهب اليـه ـ وهو على فراش المرض ـ ليدعوه الى الاسهام فيه :

لم أنس اذ زرته فى البيت منفـردا
يوما لأدعـوه للمجمـع العـربى
فقلت أدعـوك للجلى فأنت لهـا
أهل وأحـوزنا فى السبق للقصـب
فقـال ـ ينـكر منى ما أحـاوله ـ
لن تجـد وكـل النـاس فى لـعب

فقلت مولاى قد خرجت نابتة
فيما مضى يا لهم من فتية نجب
نهضت بالعلم فيهم نهضة عجبا
حاشا يضيع الذى كابدت من تعب
فابرنشق الشيخ من قولى وقال نعم
لكنه منصب يحتاج للنصب
طال المسير وقد مس العيون قذى
من القديح ونضوى ناءمن لغب (١)
خليفتى أنت فانهض باللغى معهم
وادأب فانك مطبوع على الدأب

والبيت الأخير شهادة من الشيخ حمزة لحفنى بأنه خليفته فى اللغة ، وقد كانت هذه نبوءة صادقة ، فقد عرفنا كيف خلفه فى منصب المفتش الأول للغة العربية بوزارة المعارف .

٧ ــ وطنيته الصادقة

ربما كان من تكرار القول أن نعيد عليك ماسبقت الاشارة اليه من وقف قلمه على تأييد الحركة الوطنية ومناهضة الاحتلال وهو موظف رسمى : الأمر الذى جعله هدفا لسلسلة متصلة

---

(١) القديح : رواسب تصيب العين ، فتسبب لها مرضا .

الحلقات من الاضطهادات . وقد عرفت أنه على اثر قيـام الثورة العرابية تطوع بالجندية فى ثكنات عابدين ليحارب مع الثورة : كان اذ ذاك فى سن الجندية ، ولكنه لم يدع اليها ، لأنه وحيد أبويه ، فضلا عن حفظه للقرآن الكريم ، فلم يسعه الا الانضمام الى الثورة عن طريق التطوع .

وحين قام مصطفى كامل بحركته الكبرى ضد الاحتلال كان حفنى وراءه فى كل خطوة يخطوها ، على الرغم من كونه موظفا رسميا . ويروى ولده مجد الدين أن الزعيم مصـطفى كـامل كان على اتصال دائم بوالده ، ولا سيما فى السنوات الأولى من قيام الحركة ، وأنه كان يستشيره ، ويتلقى توجيهاته حيث كـانا يجتمعان بكبار الوطنيين فى بيت « لطيف باشا سليم » وفى بيت المجاهد « محمود بك سليم » صاحب جريدة (عرفات) على أن سر هذه الحركات لم يكن ليخفى على المخابرات البريطانية ، فقد انكشف أمرها ، وكان من جراء ذلك أن نال حفنى ناصف ما ناله من النفى والتشريد الذى سبق أن أشرنا اليه .

بين حفني وبنيه

أتفنى معى ان حان حينى تجاربى
وما نلتهـا الا بطول عنـاء ؟
وأبذل عمرى فى اكتساب معارفى
ويفنى الذى حصلتـه بفنـائى ؟
ويحـزننى ألا أرى لى حيـلة
لاعطائها من يسـتحق عطـائى
اذا ورث المثرون أبنـاءهم غنى
وجاها فما أشـقى بنى الحكماء

اذا كان الأبناء موضع اعزاز الآباء فهذا الاعزاز يبلغ ذروته عندما يكونون أبناء شعراء ، وكذلك كان حفنى مع بنيه ، فها هو ذا يبخع نفسه أسفا ، لأنه قليل الرصيد من المال ، وان كان كثير الرصيد من التجارب والعلوم ، ولكن هذا الرصيد الأخير لاطريق الى أيلولته بالميراث الى بنيه . والأبيات غاية فى الحكمة والاحكام وكأنني بكثير من الشعراء يودون أن تنسب اليهم بنصف ماقرضوا من شعر .

لم يستطع حفنى أن يورث بنيه من المـال الا قليلا ، ولا أن يورثهم من العلم والتجارب لا قليلا ولا كثيرا ، اذن فلينشئهم

تنشئة عصامية تجعلهم يشقون طريقهم بسواعدهم ، وقد كان ، فانه لم يدخر جهدا ولا مالا فى سبيل تعليمهم ، حتى أتموا جميعا ــ على وجه التقريب ــ تعليمهم بأوربا ، وكانوا سبعة ، بكرهم ملك حفنى ناصف ــ باحثة البادية ــ ولو لم يكن له سواها لــكان قد أنجب .

كان حفنى ــ كما أسلفنا ــ يخلط تلاميــذه بنفسه ، حتى مايحسون بينهم وبينه فرقا ، وهذه هى نفس الطريقة التى ربى بها أولاده ، فقد كانوا أصدقاءه قبل أن يكونوا بنيه : يتبادل معهــم الأحاديث والآراء ، بل النكات أحيانا بل ربما خرجت هــــذه النكات بعض الشىء عن حدود الوقار .

واليك رسالة يداعب بها ولده مجد الدين ، بعث بها اليه من الباخــرة ، وهو فى طريقه الى أوربا :

« عزيزى مجــــد الدين

ولقدذكرتك والرياحعواصف ... والبحر يعلو بالسفين ويهبط
فكأنما هى أنتحين تسير فى ... جوز الطريق مهرولا تتنبط

كلام يقوله الشعراء ، والحقيقة أن البحر كان رهوا ، والجو كان صحوا ، والهواء كان رخوا ، ولم يكن بنا دوار ، مما نحدث عادة للسفار . وهذه ــ يعنى برندبزى ــ أول مينـــاء وربى ، وسنرجع الى البحر ، فلا نخرج الا فى « تريســتا » فرضــة النمسا . . . الخ » .

ولم يكن حفني يكتفي فى تثقيف أولاده بما يتلقون بين جدران الفصول فى المدارس ، بل كان لا يألو جهدا فى تحبيب الأدب - نظمه ونثره - اليهم حيث يجتمع بهم ، ولو كان هذا الاجتماع فى الترام . وهاهوذا فى الترام مع ولده مجدالدين ، وأمامه الاعلان المشهور «اذا رمت النزول فاطلب من الكمسارى توقيف القطار» فيطلب حفنى اليه أن يصوغ العبارة فى قالب شعرى ، ولكن مجد الدين يرتج عليه ، فيقول حفنى :

اذا رمت النزول بنى فاطلب   من الكمسار توقيف القطار

ثم هو يحث أولاده على قراءة الشعر العربى الأصيل واستظهاره ويرصد الجوائز لمن يتفوق منهم فى هذا المضمار ، ويذكر ولده مجد الدين أنه ظفر بجائزة قدرها ريال لأنه حفظ معلقة عمرو بن كلثوم . كذلك كان يغريهم بالمطارحات الشعرية ، ويحملهم عليها كلما زاره أديب ، وقد اتفق مرة أنهم تبادلوا هذه المطارحات مع حافظ ابراهيم فى أثناء مصيفهم برأس البر ، فتعثر حافظ فى بيت مبدوء بحرف النون ، فارتجله قائلا :

نمتم ونمنا ونام الناس كلهمو

لما حللتم برأس البر يا لكع

ويروى مجد الدين حادثا له مغزاه فيما يتعلق بتربية حفنى لأولاده . ويتلخص الحادث فى أنه كان - وهو صغير - يشعر بما يشعر به المدللون من أبناء كبار الموظفين ، وعلى ذلك يجب أن تنحنى له جباه المدرسين ، بيد أن أحد المدرسين لم يؤد له فروض

الطاعة ، بل أوسعه ضرباً ، فذهب من فوره الى أبيه يستعديه على المدرس ، فاستدعاه حفنى ، وقال له على مسمع ابنه العبارة المأثورة « عليك أن تكسر ، وعلى أن أجبر » .

ويروى حادثا آخر من هذا القبيل ، ويتلخص فى أنه زار محكمة طهطا ، اذ كان والده قاضيها ، فاحتفى به كاتب المحكمة ونفحه بقلم ملون وكمية من الأوراق البيضاء ، وماكاد أبوه يلمحها فى يده حتى أبتدره بالسؤال عن مصدرها ، فأجابه — وهو يتلعثم — بالحقيقة ، فاربد وجه حفنى ، وانتهره وانتهر الكاتب معه ، ورد الهدية الى مكانها من العهدة الحكومية .

ويروى حادثا ثالثا ، خلاصته أنه استصحبه هو واخوته فى موسم دخول المدارس الى بعض البنوك (بنك استين بالعتبة الخضراء) ومن هناك استحضر لهم ما يلزمهم بحوالى ١٥٠ جنيها وفى عصر ذلك اليوم نفسه بصر بنوه به وهو يرتق بيده قميصا صوفيا له ، فلما أنكروا عليه ذلك أجابهم قائلا : ليتنى أستطيع أن أكفيكم أولا .

ويروى كذلك أن والده حاول أن يغريه هو واخوته بمزاولة الرياضة البدنية فأخفق ، ولكن النجاح حالفه حينما أغراهم بتعلم الموسيقى ، ليربى لديهم الذوق الفنى ، ومن أجل ذلك كان يصحبهم الى المسارح والأندية ، وما كاد الحاكي (الفونوغراف) يظهر لأول مرة حتى بادر باقتنائه لهم مع نخبة من الاسطوانات لكبار المغنين والمغنيات .

ويروى كذلك أنه كان ينمى فيهم ملكة الاستقلال بالرأى ، وكان يترك لهم مطلق الحرية فيما كانوا يؤدونه من الأعمال الوطنية بل كان يدفعهم الى تلك الأعمال بكلتا يديه الى درجة أنه — مجد الدين — تعرض مرة لتوقيع الحكم عليه بالاعدام ، وأصيب والده من جراء ذلك بالشلل الذى لازمه الى وفاته ، وفى أثناء مرض الموت سأله : هل أنت راض عنى ، فأجاب : كل الرضا .

واذا كنا أجملنا الكلام عن أولاد حفنى فلن نستطيع الا أن نعرض لملك — باحثة البادية — بقليل من التفصيل ، فلقد كانت طاقة نسائية لم تبلغها عبقرية كثير من الرجال ، كما كانت تعبيرا عمليا عن رأى أبيها فى الحركة التى نادى بها قاسم أمين ، كما تسلمت هى الراية بعد موت قاسم ، وجعلت تنادى بمبادئه ، حتى لفظت النفس الأخير . ولقد رحلت فى مثل أعمار المنى ، وذهبت فى مثل آجال الزهر : لم تتجاوز اثنين وثلاثين ربيعا (١٨٨٦ — ١٩١٨) وكان موتها قبل موت أبيها بعام واحد ، وكان اذ ذاك مصابا بشلل جزئى بسبب محنة ولده مجد الدين — كما أسلفنا — وأغلب الظن أن مصاب حفنى فى ملك هو الذى أجهز عليه ، والعجيب أننا لانجد له فى رثائها بيتا واحدا ، فهل عقد الحزن لسانه ، أم أقعده المرض ، أم ضاع رثاؤه لها بين ماضاع من شعره ؟ والذى لا أشك فيه أنه لو ما تقبلها لقالت فيه من الشعر مالم تقله الخنساء فى أخيها صخر .

بين حفنى وحافظ

كم كنا نود لو فسح أمامنا المجـــال لايراد مادار بين حفنى وأصدقائه أئمة الأدب وأعلامه فى هذا العصر من مساجلات نظمية ونثرية فيها للأديب متعة فنية ، وفيها لمؤرخ الأدب أضواء كاشفة تلقى على حيوات هؤلاء الأدباء . كان حفنى وثيــق الصلة بأدباء عصره ، وبينه وبين الكثير منهم مراسلات ومــداعبات ، ونخص من هؤلاء محمد عبده ، وقاسم امين ، واسماعيل صبرى ، وعلى يوسف ، والأمير شكيب أرسلان ، وأحمد سمير ، ومحمد المويلحى والشيخ حمزة فتح الله ، وغير هؤلاء ، وربما مر بك أطراف من هذه الطرف فى مناسبات خاصة أوردناها على سبيل الاقتصاب ، لا على سبيل الاستيعاب .

بيد أننا ــ مهما يحد حجم الكتاب الذى نعده من الانطــلاق فى هذه المساجلات ــ لانستطيع أن نغفل ماكان بين حفنى وحافظ من مساجلات بعضها يضحك الثكلى ، وبعضها يبكى العروس يوم زفافها .

كان حفنى وحافظ صديقين ألف بينهما « أدب أقاماه مقــام الوالد » كما ألف بينهما الاتصال الوثيق بالشيخ محمد عبده ،

والسعى المشترك فى اصـلاح الحالة الاجتماعية ، وكان كلاهما اماما فى الفكاهة ، وحضور البديهة ، والنكتة الحاضرة ، الى غير ذلك من مختلف الوشائج والصلات .

لذلك نرى حافظا يداعب صديقه بالقصـيدة التالية فى حفل تكريم أقيم له بنادى طنطا عندما انتقل من القضاء الى التفتيش ، وسترى كيف سقطت الكلفة بين الصديقين الى حد عدم التـورع عن ذكر ما يتخلل الغطاء ، ويمتص الدماء من الحشرات ، كما هو واضح من قـوله :

يبيت يقصـع ما لم أسـمه أو أكنى

واليك القصيـدة بتمامها . . . كمـا وردت فى ديوان حافظ (جـ ١ ص ١٧٩) :

يـا يوم تـكريم حفنى	أرهفت للقـول ذهنى
فيـا قـريض أجبنى	ويا بيـان أعـنى
عـلى أفى بعـض دينى	ان كـان ذلك يـغنى
يا من ضـربت بسـهم	فى كـل عـلم وفـن
بنيت للشـعر فينـا	والنثـر أعظم ركـن
وما خـلقت لعمـرى	فى الشـرق الا لتبنى
فـكل رب يـراع	فى مصـر خريج حفنى
ان قال شـعرا فـراح	تـدار فى يـوم دجـن
أو قـال نثـرا فـروح	يجتـازنا غب مـزن
فان بـدأت بقـول	منـيه فبالـكأس ثنى

وطر الى اللهـو وارغب . عن حـكمة المتـأنى
فـالعيش في بنت فـكر تجـلى وفى بنت دن
وان طـلبت مـزيدا ففى منـاجاة خـدن
لولا الحيـاء ولـولا دينى وعقـلى وسنى
لقمت فى يـوم حفنى أدعـو لسـكرة «ينى»
ولا أقـول لحـفنى ما قيـل يـوما لمعـن
لاتنس عيشـا تـولى ما بين شـرح ومتـن
ولى شـبابك فيـه مـا بـين مـد وغـن
وذقت من « جـاء زيد » ومن شروح « الشـمنى »
ومن حـواشى الحـواشى على متـون « ابن جنى »
ما لم تـذقك الليـالى قلبن ظهـر المجـن
أيام سـجـلطان ياهـو « بمشـمـه » ويغنى
يبيت يتصـع ما لـم اسـمه أو أكـنى
يشـكو اليك وتشـكو اليـه عيشـة غبـن
أيـام يدعـوك : حفنى من الحيـاة أجـرنى
هـات المسـدس انى سـئمت « مشى وجبنى»
من لى بـدرهم لحـم عليـه حبـة سمن
قـرمت والله حـتى صـاحت عصـافير بطنى
أيـام عيـدك يـوم . تفـوز فيـه بدهـن
أيام « مهيـأ » أشهى اليـك من «سـن جونى»

***

أقـول هـذا وانى لمحسـن فيـك ظنى
فان غـدوت وزيـرا يومـا وجئنـا نهنى

فــلا تــكن ذا حجـاب — ولا تطـــل فى التجنى
ولا تقــل من غــرور : — يأيهـــا النـــاس انى

***

أخشى عليــك المنــايا — حــتى كأنــك منى
اذا شــكوت صــداعا — أطلت تســهيد جفنى
وان عــراك هــزال — هيــأت لحــدى وقطنى
وان دعــوت لحى — يــنوما فايــاك أعنى
عمــرى بعمــرك رهن — فعش أعش ألف قــرن
نبــقى وابليس فيهــا — نبــكى الليــالى وتفنى
أسرفت فى المــزح فاصفح — ياســيدى واعف عنى
فالــذنب ذنب «شــدودى» — فالعن « شــدودى » ودعنى
قــد ســن فينـا مزاحا — عــلى الحقيقــة يجنى
ذقت الأمــرين منــه — فســل « ســايما » وسلنى
واســمع مــديح محب — يطــرى بحــق ويثنى
لقــد جمعت خــلالا — تضــمنت كــل حســن
مفتشــا وفقيهــا — وقاضــيا وابن فن
ان المعــارف فــازت — بمثيــة المتمــنى
« بحشــمت » و « عــلى — أبى الفتــوح» و «وحفنى»

نقول : وهذا نمط جديد من التكريم لايكون الا بين الأوداء الأصفياء ، والقصيدة من الدعابات التى هى « أبقى على الزمن الباقى من الزمن » ومن أحق بها من حفنى صــاحب الدعابات الخالدة ؟

وما دام حافظ قد أشار فى قصيدته الى الارتباط الذى بين حياته وحياة حفنى فعلينا أن نذكر منشأ هذه القصة الطريفة .

ذلك أنه فى يوم الأربعين بعد وفاة الشيخ محمد عبده تزاحم المتزاحمون على رثائه ، فاختير من بينهم ستة فقط : هم الشيخ حسن أبو خطوة ، وحسن باشا عاصم ، وحسن باشا عبد الرازق ، وقاسم أمين ، وحفنى ناصف ، وحافظ ابراهيم ، وتشاء المقادير أن يكون موتهم طبقا لترتيبهم فى التعاقب على منصة الخطابة ، فلما استأثرت رحمة الله بالأربعة الأول ، وبقى دور حفنى لاحظ هذه الملاحظة ، فكتب الى حافظ يقول :

اتذكر اذ كنا على القبر ستة	نعدد آثار الامام ونندب؟
وقفنا بترتيب وقد دب بيننا	ممات على وفق الرثاء مرتب
أبو خطوة ولى وقفاه عاصم	وجاء لعبد الرازق الموت يطلب
فلبى وغابت بعده شمس قاسم	وعما قليل نجم محياى يغرب
فلاتخش هلكا ماحييت فان أمت	فما أنت الا خائف تترقب
فخاطر وقع تحت القطار ولا تخف	ونم تحت بيت الوقف وهو مخرب
وخض لجج الهيجاء أعزل آمنا	فان المنايا منك تجرى وتهرب

من أجل ذلك وجدنا حافظا يشير الى هذا فى قصيدة التكريم بالأبيات التى تبدأ بقوله :

أخشى عليك المنايا	حتى كأنك منى

وفى الحقيقة أنه كان يخشى على نفسه ، لاعلى حفنى ، ولما استأثرت رحمة الله بحفنى قال:

آذنت شمس حياتى بالمغيب   ودنا المنهل يا نفس فطيبى
ان من سار اليه سيرنا   ورد الراحة من بعد اللغوب
قد مضى «حفنى» وهذا يومنا   يتدانى فاستثيبى وأنيبى

ولم تكن هذه القصيدة فى رثاء حفنى ، ولكنها كانت فى احدى ذكريات وفاة الامام ، غير أنه عرض فيها لهذا الحادث فى مطلعها ، كما رأيت ، ثم فصله بعد ذلك بقوله :

قد وقفنا ستة نبكى على   عالم المشرق فى يوم عصيب
وقف الخمسة قبلى فمضوا   هكذا قبلى وا نى عن قريب
وردوا الحوض تباعا فقضوا   باتفاق فى منايا هم عجيب
أنا مذ بانوا وولى عهدهم   حاضر اللوعة موصول النحيب
هدأت نيران حزنى هدأة   وانطوى حفنى فعادت للشبوب

ثم ينتقل حافظ الى الغرض الأصلى من القصيدة ، فيعدد مناقب الامام ، ولكنه فى الختام يعرج على حفنى ، فيقول :

ونسينا ذكر « حفنى » بعده   ودفنا فضله دفن الغريب
لم تسل منا عليه دمعة   وهو أولى الناس بالدمع الصبيب
سكنت أنفاس «حفنى» بعدما   طيبت فى الشرق أنفاس الأديب
عاش خصب العمر موفور الحجا   صادق العشرة مأمون المغيب

وهكذا يتذكر حافظ بعد ثلاث سنين من موت حفنى واجبا اشترك أدباء العالم العربى جميعا فى التقصير عن أدائه ، حين يقول « لم تسل منا عليه دمعة » وذلك لأن حفنى ناصف لم تقم له حفلة رثاء ، كما أشرنا الى ذلك من قبل ، ومن العجيب أننى قرأت لحافظ من مدة غير قصيرة أبياتا مطلعها :

ياقبـر « حـفنى » أجـبنى   ماذا فعـلت « بحـفنى »

ولكنى بحثت عنها فى الديوان فلم أجد لها أثرا ، وليس لهذا معنى سوى أن حافظا أيضا لم تجمع كل آثاره الأدبية .

على أن حفنى ناصف لم يكرم حافظا على طـريقته فى الدعابة اللاذعة ، وانما كرمه بقصيدة جدية لا أثر فيها للدعابة ، وذلك حين أصدر حافظ أول ديوان له ، فقال حفنى مقرظا :

شعر ــ على قلته ــ جيـد   والشعر لا يمتاز بالطـول
والدر بالقيـراط مقياسه   والأرض بالفرسـخ والميل
تسـتعذب الألسـن ترتيله   كـأنه محـكم تنـزيل
يظـل من يقـرأ آياتـه   مابين تكبـير وتهليـل
فصـلت الألفاظ فيـه على   قدر المعـانى خير تفصـيل
فلا يرى ناقـده كلمـة   محتـاجة فيـه لتبـديل
جعلت ياحـافظ كيد الـذى   يشـناك فى خسـر وتضليل
كأن ديـوانك فى عينـه   رسـالة من عند عزريل
وكل بيت حجر قـد هـوى   عليـه من أحجـار سجيل
فاهنأ بما أوتيت من حـكمة   مصـوغة فى حسن تخييل
ومن يكن ديـوانه هـكذا   يدعى بحق «شـاعر النيل»

نقول : والقصيدة رائعة ، فصلت فيها أيضا الألفاظ على قدر المعانى خير تفصيل ، وان تضمن البيت الثالث مبالغة دينية من رجل دين ، ولنا أن نتساءل : من هو الذى يشنأ حافظا ، فكأن ديوانه رسالة هبطت عليه من عند عزرائيل ، وكأن كل بيت فيه على رأسه

حجر من سجيل ؟ أهو «شبوقى» ؟ ربما ، فنحن نعلم أن «شوقى» كان يثيره أن يطلق على حافظ لقب « شاعر النيل » الذى سجله حفنى فى هذه القصيدة ، كما يسجل العقار فى الشهر العقارى.

ومادام الحديث قد جرنا الى ذكر شوقى من حيث أردنا ، أو لم نرد فلا بأس أن نقف هناوقفة قصيرة .

لقد لفت نظرى ــ وأنا اكتب عن حفنى أن «شوقى» ليس له دور فى رواية حفنى ناصف ، وهذا غير ماكان ينتظر ، فكلاهما شاعر مفلق ، وهما متعاصران على فرق مابينهما فى السن ، وقد مر بنا أن حفنى ناصف كان استاذا لشوقى فى مدرسة الحقوق ويقول ولده مجد الدين ان حافظا « وشوقى » كانا يعرضان على حفنى أشعارهما قبل نشرها . ولكن على الرغم من ذلك كله لا نجد مساجلة واحدة دارت بينهما ، فهل كانت العلاقة يسودها جو من الفتور ، هذا ما أرجحه للاسباب التالية :

١ ــ نعم ، لم تقم لحفنى حفلة تأبين ، ولكن هذا لايمنع «شوقى» أن يؤبنه ، لم لا ... وهو الذى يقول :

وأنا الذى أرثى الشموس اذا هوت
أو عاقها شيء عن الدوران ؟

بيد أننا لم نرو بيتا واحدا له فى رثاء استاذه حفنى ، أفلم يكن شمسا من هذه الشموس الهاوية ؟

٢ ـ ان صح ما استنتجناه من أن حفنى ناصف كان يعنى « شوقى » فى القصيدة التى قرظ بها ديوان حافظ كان ذلك أبلغ دليل على هذا الفتور .

٣ ـ رأينا حفنى ناصف فى تأبين محمود باشا سامى البارودى يبايع اسماعيل صبرى بامارة الشعر ، حين يقول مخاطبا البارودى :

سنقوم فيهم للرياسة ضجة
يوم السقيفة تستخف هلاكا

ان لم يكن صبرى أحق بارثها
ياليت شعرى من أحق بذاكا ؟

من غير اسماعيل بعدك يقتفى
فى فتح أبواب الخيال خطاكا ؟

ولم يكن شوقى اذ ذاك بالصغير السن ، أو المغمور الاسم بل كان ملء الأفواه والأسماع ، فضلا عن كونه شاعر السراى ، وكان يناهز السادسة والثلاثين من عمره حين مات البارودى سنة ١٩٠٤ ، وكان أنصاره قد أطلقوا عليه لقب أمير الشعراء ردا على تلقيب حافظ بشاعر النيل .

كل هذه الأسباب مجتمعة جعلتنى أرجح جو الفتور الذى كان يسود العلاقة بين حفنى وشوقى ، ويغلب على ظنى أن مرجع ذلك الى أن «شوقى» كان من حزب السراى ، على حين كان حفنى من حزب الشيخ محمد عبده ، وكانت السراى والامام على

طرفى نقيض ، وهل أدل على ذلك من أن الشيخ محمد عبده يموت ، فتقوم الدنيا وتقعد لموته،ويسيل عليه من دموع الشعراء مايكون ديوانا ضخما من الشعر ، وليس بين هذه الدموع دمعة واحدة لشوقى الذى يرثى الشموس اذا هوت ؟ أستغفر الله ، بل ان «شوقى» رثى الامام بأبيات ثلاثة هى الى الشماتة أقرب منها الى الرثاء وهى :

مفسر آى الله بالأمس بيننا
قم الآن فسر للورى آية الموت
رحمت مصير العالمين كما ترى
وكل نعيم أو عزاء الى فوت
هو الدهر ميلاد فعيش فرحلة
فذكر كما أبقى الصدى ذاهب الصوت

واذا كان البيتان الأولان يترجحان بين الشماتة والرثاء فان البيت الثالث نص فى الأولى ، فمن يقول : ان ذكر الشيخ محمد عبده صدى لا يلبث أن يخفت صوته ؟.

وانى لأذكر أن بعض الشعراء الذين رثوا الامام تولى الرد على هذه الأبيات بأبيات منها :

وقائل : فسر لنا آية الـ	ـموت فيا لله من حقده
أما كفاه أن خير الورى	فسرها قبلك فى لحده
مات كما مت فلم تجده	رسالة الله ولم تفده

ثم نعود الى حافظ وحفنى ، لا لنذكر دعابة تضحك الثكلى، بل لنذكر مأساة تبكى العروس يوم زفافهـا ، ونعنى بذلك رثاء حافظ لباحثة البادية . لقد قام حافظ فى هذا المقام بالواجب الذى عجز عن القيام به أبوها ، فرثاها بقصيدة طويلة نجتزىء منهـا بما يتعلق بتعزيته لوالدها المفجوع ، وذلك حين يقول :

علمت هاتفـة القصـو ... ر نواح هاتفـة الشجر

وتركت أتراب الصبـا ... حزنا يقطعن الشعـر

وتركت شـيخك لا يعى ... هل غاب زيد أو حضـر ؟

كالفـرع هزته العـوا ... صف فالتـوى ثم انكسر

قد زعزعتـه يد القضـا ... ء وزلزلتـه يد القـدر

أنا لم أذق فقـد البنيـ ... ن ولا البنـات على الكبر

لـكننى لمـا رأيـ ... ت فؤاده وقـد انفطـر

ورأيتـه قـد كاد يحـ ... رق زائريـه اذا زفـر

وشـهدته أنى خطـا ... خطـوا تخبـل أو عثر

أدركت معنى الحـزن حز ... ن الوالدين فمـا أمر

صبـرا أبا ملـك فـان ... الباقيـات لمن صـبر

وبقـدر صـبر المبتـلى ... طـول المصـيبة والقصر

لكن أنت اذا تسـا ... ء كأنت أنت اذا تسـر

من مُلَحه وفكاهاته

وربما كان الأجدر أن تعنون هذا الفصل بعنوان « النكتة الناصفيه » فاننا عقدناه من أجلها ، وكان للنكتة فى عهد حفنى دولة ورجال هو فى مقدمتهم ، وتستطيع أن تضم اليه أعلاما آخرين من أمثال الشيخ على الليثى ،ومحمد عثمان جلال،ومحمد البابلى ، وحافظ ابراهيم ، وعبد العزيز البشرى ، وقلما ترى أديبا فى هذا العصر لا يستعمل النكتة ، ولو على وجه الندرة ، كما كان شوقى وغيره .

ولشدة احتفال هذا العصر ورجاله بالنكتة حفل بالجرائد الحافلة بها من أمثال « أبو نضارة » وحمارة منيتى ، والأرنب ، والمسامير ، والسيف ، والمشنقة ، والخازوق ، والصاعقة ، والكشكول ، والفكاهة ، والمطرقة ، والبعكوكة .

ويهمنا هنا أن ننفى ما علق بالأذهان من أن النكتة لمجرد التسلية والاضحاك ، فليست النكتة كذلك ، وانما هى كثيرا ما تكون لتهذيب النفوس ، ونقد الحكام ، وتقويم أودهم عن طريق التسلية والاضحاك . من أجل ذلك لا تعجب كثيرا اذا علمت أن أول من فكر فى اصدار جريدة هزلية هو الشيخ

جمال الدين الأفغانى نفسه ، وأيده فى ذلك الشيخ محمد عبده، والكاتب البارع يعقوب رفائيل صنوع الذى اشتهر بأبى نضارة، وقد تولى الأخير ابراز الفكرة ، فأصدر الجريدة التى كانت تحمل اسمه . وكان الغرض الأساسى من انشائها التنديد بأعمال اسماعيل باشا بأسلوب فعال ، عميق الغور ، بعيد الأثر ، يتفق مع أذواق عامة الشعب .

وللمصريين من قديم فى عالم النكتة قدم راسخة ، وكانت هى سلاحهم الوحيد للانتقام من عسف الحكام فى عصور الكبت والانحلال ، وكثيرا ما نالوا ممن جعلوه هدفا لسهامها ، وحسبك فى ذلك ما يقوله الأستاذ العقاد من أن الوزير « قرقوش » كان وزيرا صالحا لا يفضله غيره من الوزراء فى زمانه ، فلما ركبته النكتة صدقها الناس ، ولم يحفلوا بالتاريخ . وفى خفة روح المصريين ، وميلهم الى الدعابة يقول « كلوت بك » : «وللمصريين نزعة الى السرور ، واندفاع فطرى الى المرح والمطايبة على وجه ينم عن الذكاء ، وحضور الذهن ، وسرعة الخاطر » ويعلل « جوستاف لوبون » هذه الظاهرة ، ظاهرة المرح عند المصرى فيقول : « كانت الطبيعة رحيمة باسمة له ؛ فما أرته يوما مجاعة، ولا أنحت على حصاده بجلدها ، ولا هدمت بيته بريحها الصرصر العاتية ، ولهذا لا نرى فى أناشيده تلك الصلوات الحارة التى كان ينشدها الآرى نزيل شطوط الهندوس يدعو بها ربه أن يجنبه الجفاف ، ويرسل عليه أبقار السماء » .

والنكتة فى اللغة النقطة ، والعلاقة بين معنييها من الوضوح بمكان ، فكما أن نقطة الحبر على الثوب أو الورق مثلا بارزة متميزة نجد النكتة بين سائر الكلام لها هذا البروز وذلك التميز، ويرى صديقنا الأستاذ عبد العزيز سيد الأهل أنه لا اختلاف بين اللفظين ؛ فالنكتة هى النقطة بعد تخفيف القاف والطاء من الثانية .

وتعتمد النكتة فى اللغة الدارجة على ما تعتمد عليه المحسنات البديعية وألوان الاستعارة والكتابة فى اللغة الفصحى غالبا . وأذكر أننى حين كنت أقوم بتدريس البلاغة ألجأ كثيرا الى هذه النكات ، ثم أتدرج منها الى الكلام الفصيح ، حتى ترسخ قواعد البلاغة فى أذهان الطلاب .

واليك أمثلة توضح ذلك بعض الشىء :

١ ـ كان حافظ ابراهيم فى مجلس يضم رجلا ثقيلا لا يرتاح اليه ، ثم قام هذا الرجل ، وجاء شاب آخر ، فسلم عليه حافظ بفتور ، فلما سئل عن سبب هذا الفتور قال : لأنه ابن اللى آم (اللئام) ألست ترى أن النكتة هنا قائمة على التورية : لفظ واحد له معنيان قريب وبعيد ... الخ.

٢ ـ ومن ذلك أن حافظا زار « شوقى » يوما ، فقدمت اليه الشراب فتاة جميلة ، فجعل حافظ يحدق بصره فيها ، فقال له شوقى : « أخشى أن تكون تعلقت فى الساقية » .

٣ ــ ومن ذلك أن امرأة بدينة سألت «الكمسارى» أفى الترام عن مكان خال ؟ فقال : لا ، فنظرت المرأة ، فوجدت ثلاثة أماكن خالية ، فقالت بحدة للكمسارى : كيف تقول:«لا»ولديك ثلاثة أماكن خالية ؟ » فقال لها : « ليست متجاورة » وواضح أن هذه النكتة تعتمد على الكناية ؛ اذ يلزم من أنه لا يسعها الا ثلاثة أماكن متجاورة أنها مفرطة فى السمن ، والكناية ــ كما نعلم ــ اطلاق اللفظ وارادة لازمه .

ثم نعود الى حفنى ، فنقول : انه كانت تتوفر فيه كل الصفات التى ترشحه ليكون علما من أعلام النكتة ، فهو ذكى ، سريع الخاطر ، متمكن فى اللغتين الفصحى والعامية (شاعر وزجال) مختلط بمختلف الأوساط من أعلاها الى أدناها ، خفيف الروح ، قادر على التركيز وصب المعنى فى المقطع الأخير ، ذو نظرة ثاقبة تنفذ الى الصميم ، خبير بما يدور حوله من أحداث ، الى غير ذلك من الصفات التى لابد منها لاجادة النكتة وبراعتها . ومن أجل ذلك وجدنا الأستاذ الاسكندرى يقول عنه : « كان رحمه الله من أطيب خلق الله حديثا ، وأرقهم فكاهة ، وأملحهم نادرة ، وأحضرهم جوابا ، مع دعابة فيه ، وقل أديب من أدباء العصر الحاضر لم يرو عن حفنى ناصف نكتة أدبية ، أو نادرة فكاهية ، أو جوابا حاضرا مسكتا » .

وقد عرضنا لبعض ملح حفنى وفكاهاته عند تحليل شعره ونثره ، وقلنا : ان الدعابة كانت فى دمه ، حتى لم يستطع أن

يتخلص منها فى مواقف الرثاء نفسه ، وليس هو بدعا فى ذلك ، بل ان حافظا يشاركه فى هذه الظاهرة . وقد مر بك قوله فى رثاء ملك :

وتركت شـــيخك لا يعى   هل غاب زيد أو حضـــر ؟

فهذا البيت أشبه بدعابة نحوية داعب بها حافظ عالما نحويافى مقام الدموع والآلام ، لا الضحك والابتسام .

ولحفنى من الدعابات والملح ما يكفى لتأليف كتاب لو وجد من يتوفر على جمعها ، ولم شعثها وفى ذلك يقول العقاد تعليقا على ما ذكرته الجرائد من أن مخلفات حفنى ناصف الأدبية قـد تطبع فى ثلاثة أجزاء : « الأجزاء الثلاثة التى تصدر لاحياءذكراه لا يزال معها متسع لجزء رابع حافل بالطـرف والنـوادر ، ولن يكون هذا الجزء أقل شأنا من اخوانه الثلاثة ، بل لعله يسبقها فى التعريف بالأديب الذى ما نظنه معروفا حق المعرفة الى الآن ، كان حفنى رحمه الله أميرا من أمراء الفكاهة ، غلابا فى ميـدان البديهة الحاضرة والأجوبة المسكتة » .

وفى مثل ذلك تقول مجلة الشئون الاجتماعية : « لقد كان هذا الرجل زينة مجالسه ، طلاوة حديث ، وسرعة بديهة ، ورقة فكاهة ، وطرافة نادرة ، تروى عنه أظـرف النـوادر ، وأملح الدعابات ، ومثل هذه المقطوعات مجالها كتاب يتضـمن هـذه النوادر ».

وقد جمع ابنه مجد الدين طائفة من هذه النوادر التى يسمح المقام بتدوينها فى كتاب عام تتداوله أيدى الرجال والنساء والشبان والمراهقين ، فمن ذلك :

١ ــ دخل على حفنى ذات ليلة فى أحد الأندية رجل ، ودفع اليه برقعة فيها البيتان الآتيان :

جارت على الليالى فى تصرفها
وأغرقتنى فى لج من المحن
فيا عميد القوافى أنت معتصمى
أقل عثارى وأنقذنى من الزمن

فكتب حفنى على الرقعة نفسها ارتجالا :

يكاد شعرك يبكينى ويضحكنى
ولم أزل ساخرا من ظنك الحسن
فاقبل عطائى بلا شكر ولا غضب
فليس والله فى جيبى سوى «شلن»

٢ ــ كان حفنى ينتظر دوره فى الترقية الى مكان خلا بموت صاحبه ، فعلم بذلك قاض بعده فى الترتيب ، فسعى لدى ولاة الأمور خفية ، حتى قلب حفنى ناصف ، وظفر بالوظيفة ، فأرسل اليه حفنى بالبرقية التالية : « أهنئكم بقلبى » .

٣ ــ ألف حفنى هو وجماعة من المهضومين أمثاله جماعة أطلقوا عليها اسم « جماعة المستحمرين » فأراد أن ينضم اليها أحد الباشوات ، فرفض حفنى طلبه قائلا : « أنت حمار أصلى »

٤ ــ بعد صدور حركة ترقيات ، وتخطى حفنى فيــها دخل عليه زميل ، فوجده يعمل بجد ، فقال له « ازاى يجى لك نفس تشتغل بعد الظلم ده ، لازم تبلط لهم فى الخط » فقال : «الحق معاك ، لازم أبلط ، وأرخم كمان » .

٥ ــ كان حفنى وهو قاض ــ فى مجلس من المجالس ، فجر الحديث الى أن استشهد أحدهم بالحديث المــأثور « قاض فى الجنة ، وقاضيان فى النار » فقال حفنى : « والناصف هو اللى فى الجنة » .

٦ ــ كان حفنى ــ وهو قاض ــ داخلا من باب المحكمة ، فتعلق به أحد أبناء الصعيد ــ وهو يظنــه من المحــامين الذين يتصيدون القضايا ــ قائلا : « أنا لى دعوة » . فقــال حفنى : « وأنا ماليش دعوة » .

٧ ــ كان حفنى يسأل متهما ــ كما هى العادة ــ عن اسمه وسنه وصناعته ، وعند الجواب عن الصناعة قال المتهم « مغنى » فقال حفنى « قل لى رأيت ايه » وهو اسم دور لعبده الحمولى .

٨ ــ كان حفنى فى حفلة رسمية يرأسها مدير الغربية «محب باشا » ولم يكونا على وفاق ، فأراد المدير أن يغض من قدر حفنى أمام الحاضرين ، فنظــر الى حذائه ، وقال له : « لم لم تســح

الجزمة ؟ » فنظر حفنى الى الموجودين قائلا : « سعادة المــدين يبدى لى ملحوظة على الجزمة » .

٩ ـــ كان توفيق دياب يلقى محاضرة فى فن الالقــاء قائلا : « يجب أن يكون الالقاء ممثلا للمعنى ، حتى فى القرآن نفسه» فقال حفنى : « دع القرآن » فأصر توفيق دياب على موقفه ،فقال له حفنى : « بربك قل لى : كيف تقرأ قوله تعــالى : (وراودته التى هو فى بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك) ؟» فبهت توفيق دياب ، ولم يحر جوابا ، وتضاحك السامعون .

١٠ ـــ قابل حفنى الأستاذ « عزيز خانكى » المحامى الأديب فى أوربا فى احدى سفراته اليها ، فقال له عزيز : « تعرف أن الملح بالتركى اسمه (طظ) ؟ » فقال حفنى : « وأنت تعرف أن السمك بالانجليزى اسمه (فش) » .

١١ ـــ كان حفنى ـــ وهو مفتش أول للغة العربيــة ـــ يزور بعض المدارس ، فاستمع الى تلميذ يلقى قصيدة لصــفى الدين الحلى ، فسأل التلميذ عن اسم الشاعر ، فأجاب : « صفى الدين الحلبى » بزيادة باء ، فقال حفنى : « هو خد بيه امتى ؟ »

١٢ ـــ اشتدت وطأة المرض على حفنى ، فلزم فراشه ، وأخذ يتغلب على الملل بقراءة كتاب « روح الاجتمــاع » لجوستاف لوبون ، فدخل عليه أحد العواد ، وسأله « ماذا تفعل ؟ » فأجابه حفنى : « بأطالع فى الروح » .

١٣ — زار حفنى « حمد الباسل باشا » على غير موعد ، فوجده يتناول الطعام مع بعض ضيوفه ، فسأله أحدهم : « أى صدفة جاءت بك الينا ؟ » فقال حفنى : « انه توارد خواطر » فقال الباسل : « بل توارد بطون » ثم تلا بيتا من الزجل لمحمد باشا صدقى كان دائما يداعب به حفنى ناصف ، وهو :

أبو جلال من ألفين ميل شم الطبيخ من غير أسلاك

فأشار حفنى الى طربوش الباسل المغربى ذى الزر الكبير قائلا «صحيح أنك أدباتى» (وكان هذا الطربوش شعار الأدباتية فى ذلك الوقت) .

١٤ — كان حفنى يصطاف على شاطىء البحر (المالح) وكان يرفقته ذات يوم حسين رافع من أسرة رفاعة الطهطاوى ، وكان حسين هذا أسود الوجه ، لأن أمه جارية ، وبعد أن أخذ حسين حمامه فى (المالح) وخرج نادى بائع لب قائلا : « لب أبيض وأسمر » فأشار حفنى الى حسين قائلا : « سودانى ومملح » .

١٥ — ذهب حفنى مرة الى « ترزى » وانتقى قماش بدلة ثم تركها له ؛ ليفصلها ، وخرج مسرعا دون أن يأخذ الترزى المقاس ، فناداه « الترزى » ؛ ليأخذ المقاس ، فقال له حفنى : « فصلها على زير » وكان حفنى بدينا ، كما عرفت .

١٦ — مر شحاذ بحفنى فى أثناء جلوسه على المقهى ، فدعا له قائلا : « ربنا ما يرقد لك جته فى أرض » فقال حفنى : « يعنى عاوزنى أموت غريق » .

١٧ ــ دخل على حفنى ــ وهو جالس مع شلة من أصدقائه ــ صديق ، فحيا قائلا : « بنسوار عليكم » فسأل أحد الحاضرين : « هى بنسوار تتعدى بحرف الجر ؟ » فقال حفنى : « بنسوار هنا بمعنى اخص » .

١٨ ــ كان حفنى يستشفى فى مصحة على جبل من جبال النمسا ، فأرسل الى حمد الباسل يحثه على اللحاق به ، فبعث حمد اليه : « اننى أفضل البقاء بين أتباعى من البدو ، فأنا بينهم كفرعون » فرد عليه حفنى : « أما أنا فوق الجبل فمثل موسى ».

١٩ ــ كان حفنى ينظم مكتبته بحضور بنيه ، فأشار أحدهم الى صورة لأبيه ، وقال : « هذه وحشة » وأشار الثانى الى صورة ثانية ، وقال : « وهذه أيضا وحشة » وأشار الثالث الى صورة ثالثة ، وقال : « وهذه أيضا وحشة » فقال حفنى : «ده ده أبقى أنا اللى وحش بقه ، الحق على لا على الصورة ، ولا المصوراتى » .

٢٠ ــ قصر أحد أبناء حفنى فى واجبه المدرسى يوما ،فانتهره المدرس قائلا : « اجتهد ، حتى تكون ثروتك العلم ؛ فأبوك لن يخلف لك ثروة » فعز عليه أن يعيره المدرس بالفقر ، فقال له : « ان أبى يملك ألفى فدان » وحين علم حفنى بذلك دهش من هذه الثروة المفاجئة ، فسأل ابنه : « من أين جئت بهذه الثروة ؟ » فأجاب : « نعم ، نحن وعبد الستار الباسل ــ يعنى زوج أخته

ملك — نملك ألفى فدان » فقال حفنى : « وعلى هذا القياس أكون أنا وعلى باشا شعراوى نملك ثلاثة آلاف فدان ، وأنا والأمير عمر طوسون نملك عشرة آلاف ، وأنا والبدراوى باشا عاشور نملك عشرين ألفا » .

وبعد ، فمما يؤسف له أن الجيل الذى عاصر حفنى ناصف وسمع نكاته ، من فيه قد انقرض ، فأصبح من العسير جمع شتاتها ، وبيان ما ينسب اليه من نكات غيره ، وما ينسب الى غيره من نكاته .

كلمة ختامية

بدأنا هذا الكتاب ببيت للمتنبى، ونختمه ببيت آخر له فنقول:

وقـــد وجــدت مكان القول ذا ســعة .
فان وجــدت لســـانا قائلا فقـــل

نعم مازال مكان القول فى حفنى ذا سعة ، وما يزال ميــدان البحث عنه رحبا فسيحا ، فلسنا نزعم أننا بهذا الكتاب الذى حدد لنا حجمه قد سبرنا أغواره ، واستوعبنا آثاره . وما أشبه مخلفات حفنى بمخلفات قدماء المصريين كلما زدناها حفائر زادتنا كنــوزا وذخائر .

يتساءل الدكتور مهدى علام عن ملفات القضايا التى فصل فيها حفنى مؤكدا أن حيثيات أحكامه — لابد — كانت تمتــاز بأسلوبه الأدبى المعروف . ثم يرجو أن يكون هناك من يقـــوم بالبحث عن آثاره ، ونحن بدورنا نتساءل هذا السؤال ، ونرجو هذا الرجاء .

ليس مما يشرف العصر الذى عاش ومات فيه حفنى أن يضن عليه بطبع أثر واحد من آثاره ، بل يضن عليه حتى بحفلة تأبين تقام له، فضلا عن اقامة تمثال يخلد ذكراه، على حين تزدان الميادين بتماثيل الشراكسة والفرنسيين .

وليس مما يشرف العصر الذى عاش فيه حفنى أن يلجأ الى مقاضاة الحكومة بعد احالته الى المعاش ، طالبا تصحيح خطأ وقع فى تسوية معاشه خصم بمقتضاه من مدة خدمته ٢٤ يوما ، ٩ أشهر ٣ سنين ــ وبذلك يبلغ معاشه ثلاثين جنيها بدلا من سبعة وعشرين ونصف . بين يدى الآن ملف هذه القضية ــ قضية تسوية معاشه ــ وفيها ما يجرح فؤاد الأدب ، ويدمى عين الأديب ، ومن العجيب أنه لم ينل الانصاف من القضاء الذى جلس على احدى منصاته عشرين عاما .

ولكن مما يشرف العهد الحاضر، أن نرى بعد أقل من نصف قرن مضى على وفاته بين أيدينا ديوانى شعره ونثره ، وطائفة أخرى من آثاره تخرج من حيز العدم الى حيز الوجود ، فتكون معينا يرده من يكتب عنه ، ونبراسا يسير على هداه .

اننا لنذكر بالفضل جهود القائمين بادارة الجامعة ــ جامعة القاهرة ــ وجهود المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب فى سبيل احياء ما أحيوه من تراث هذا الأديب الكبير ، كما نذكر بالفضل نشاط ولده مجد الدين فى احياء تراث أبيه ، وليس ذلك من جانبه بر بأبيه أكثر منه خدمة للأدب وطالبيه .

على أننا لا نقنع بهذه الجهود ، بل نطالب بالمزيد ، كما أننا نضم صوتنا الى أصوات المطالبين بانصاف حفنى ناصف . اننا لنتساءل : ماذا صنع من أجله المجمع اللغوى الذى كان فى مقدمة

العاملين على ايجاده والقائمين برسالته قبل أن يوجد ؟ واننا لنستقل ماصنعت من أجله الجامعة التى كان فى طليعة واضعي لبناتها ، والمتوفرين على دراساتها . ألا يطلق اسمه على مدرج من مدرجاتها؟ ألا تخصص له جائزة أدبية تحمل اسمه.ألا يطلق اسمه على شارع رئيسى من شوارع القاهرة . وذلك أضعف الايمان .

تلك أمانة نلقيها على عاتق المسئولين ، لا من أجل انصاف حفنى وأمثاله من عظماء الرجال ، بل من أجل من نعنى بتنشئتهم من الأجيال ، وبالله التوفيق ..

المؤلف

ذكر اهم المراجع التى اعتمدنا عليها فى اخراج هذا الكتاب

١ ـ كتاب شعر حفنى ناصف	للأستاذ مجد الدين ناصف
٢ ـ كتاب نثر حفنى ناصف	للدكتور مهدى علام والأستاذ عبد الحميد حسن
٣ ـ الوسيط فى الأدب العربى	للشيخ أحمد الاسكندرى
٤ ـ كتاب مالك	للأستاذ أمين الخولى
٥ ـ الأدب العربى من عهد الفاطميين	للأستاذ محمود رزق سليم
٦ ـ الاسلام والتجديد فى مصر	للدكتور تشارلز آدمس
٧ ـ تقويم دار العلوم	للأستاذ محمد عبد الجواد
٨ ـ محاضرات عن حفنى ناصف	للدكتور محمد خلف الله احمد
٩ ـ مخطوطات بقلم حفنى ناصف	
١٠ ـ تقرير عن الجامعة المصرية	لحفنى ناصف
١١ ـ كتاب الفرقان	لابن الخطيب
١٢ ـ مقدمة ابن خلدون	لعبد الرحمن بن خلدون
١٣ ـ شعراء مصر وبيئاتهم	للأستاذ عباس العقاد
١٤ ـ كتاب العمدة	لابن رشيق القيروانى
١٥ ـ الطراز الموشى فى صناعة الانشا	للشيخ عبد الوهاب النجار
١٦ ـ ديوان شوقى	
١٧ ـ ديوان المتنبى	
١٨ ـ ديوان حافظ	
١٩ ـ ديوان العقاد	

٢٠- كتاب نشأة النثر الحديث — للأستاذ عمر الدسوقي

٢١- كتاب البيان والاعراب — للمقريزي

٢٢- كتاب مميزات لغات العرب — لحفني ناصف

٢٣- كتاب الاسماء العربية لمصطلحات الالفاظ الحضارية — لحفني ناصف

٢٤- المجموعة الثانيـــة للمحــاضرات التى ألقيت بنادى دار العلوم

٢٥- النكتة المصرية — للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

٢٦- ملف قضية معاش حفني ناصف

٢٧- اعداد من صحيفة الاهرام والاخبـــار ومجلة المقتطف والهلال

فهرس الموضوعات

الدار القومية للطباعة والنشر

أعلام العرب

الكتاب القادم

أحمد بن طولون

للدكتورة

سيدة إسماعيل كاشف

يصدر فى ٧ ديسمبر ١٩٦٥

يطلب من

مكتبة مصر

٣ شارع كامل صدقى "الفجالة"

الثمن ١٠ قروش

الدار القومية للطباعة والنشر